

قصة موسى والخضر عليهما السلام

"دراسة بلاغية تربوية"

دكتور

عماد محمود محمود عبد الكريم

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن الكريم

كلية البنات الأزهرية بالعاشر من رمضان - جامعة الأزهر الشريف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

اللهم ربنا لك الحمد أنت قيم السموات، والأرض، ولك الحمد أنت رب السموات، والأرض، ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض، ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك خاصمت، وبك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وأسرت، وأعلنت، وما أنت أعلم به مني، لا إله إلا أنت (١).

أما بعد: فإن دراسة القصة القرآنية، وتحليلها من حيث أسرار التأثير فيها، وأثرها في التوجيه، والتربية، وبناء الإيمان، وتحليل عناصرها، والكشف عما فيها من إعجاز البيان، وإقناع للعقل، وهداية للحق، وتأثير في الوجدان، وسمو بالنفس؛ يُمثل هدفاً من أهداف الدراسات القرآنية الأصيلة؛ فقصص القرآن مزيجٌ من الإيمان والعلم، ومن المشاعر والسلوك، ومن الحق، والجمال؛ وقد توجهت في هذا البحث - مستمداً من الله العون - شطر قصة (موسى والخضر) - عليهما السلام - لأبحث في آياتها عن أسرار البلاغة، ومعالم التربية. ولا ريب أن كل آيات القرآن الكريم يصدق فيها قول القائل:

كالبردٍ من حيثُ التفتَ رأيتَه ... يُهدي إلى عينيك نوراً ثاقباً (٢)

(١) صحيح البخاري (٩ / ١٣٢). كتاب: التوحيد. باب: قول الله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].
(٢) ثاقباً: "أي: مضيئاً. يقال: ثقت النار ثقباً، والذي يطرح عليها لتقذ يقال له: الثقب".

كالشمس في كبد السماء وضوءها ... يَغشى البلاد مشارقاً ومغارباً (١)

ورجائي أن يكون هذا البحث جملة مفيدة في سفر الدراسات القرآنية، ذلك السفر، الذي بدأت الأمة الإسلامية كتابته، من يوم نزل القرآن العظيم، ولا يزال علماءها يُضيفون إليه، في كل زمان صفحات وصفحات، ملؤها الإيمان بصدق القرآن في أخباره، وعدله في أحكامه، وإعجازه في بيانه؛ تحقيقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) ﴾ [الأنعام: ١١٥].

موضوع البحث وأهميته: في هذا البحث مزج بين علمين من أهم العلوم هما علمي البلاغة والتربية، فلا شك أن المقصود الأسمى من علم البلاغة هو أن يبلغ الكلام من نفس السامع، أو القارئ مبلغ التأثير في عقله، ووجدانه؛ لينعكس على قناعاته، ثم على عمله، وسلوكه. وتتمثل أهمية الدراسة في حاجة المجتمع الإنساني لصياغة مبادئ التربية الصحيحة المستقاة من القرآن الكريم، في زمن كثرت فيه الفتن الفكرية وما يترتب عليها من انحرافات سلوكية، وقصة رحلة موسى إلى الخضر تُرسي مبادئ تربية عظيمة نحن أحوج ما نكون إلى التعلم منها؛ ففيها ما يزيد الإيمان بالله - عز وجل - وحكمته التامة وعلمه المحيط، وما يُرسخ القيم الخلقية المستقيمة في نفوس البشر.

(١) البيتان لأبي الطيب المتنبي، انظر اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي لأبي العلاء المعري (ص: ١٢٥)؛ والوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٢٦٢ لأبي الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ). تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد الجاوي - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. ومعتزك الأقران في إعجاز القرآن ٢٣/١. ويُسمى (إعجاز القرآن ومعتزك الأقران) لجلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان. الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

حدود الدراسة: اقتصرت الدراسة على آيات قصة موسى مع الخضر (من الآية ٦٠ إلى الآية ٨٢ من سورة الكهف) وركزت بحثها في وجهتين هما: البلاغة والتربية.

الدراسات السابقة: كسائر سور القرآن الكريم حظيت سورة الكهف عموماً والقصص الوارد فيها بعناية المفسرين، والكاتبين في قصص القرآن الكريم وتأتي هذه الدراسة لتنتقي منها ما يلائم موضوعها، وتضيف ما تراه جديداً مفيداً، وتمزج بين الفوائد البلاغية والقيم التربوية. وتقارن بين الأقوال وترجح بينها.

منهج البحث وخطته: المنهج بصفة عامة هو: " الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تُهيمن على سير العقل وتُحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة " (١).

ومنهج المفسر: " هو الطريق الذي سلكه، وأدى به إلى الكشف عن معاني القرآن الكريم، وهو مقارنته بعض القرآن ببعض ونظيره في السنة وأقوال الصحابة، والتابعين، واستخدامه القواعد الشرعية، والعربية، على الوجه المخصوص الذي يوصله إلى مطلوبه، واستخدامه علوم الفلسفة، والطبيعة، والطب، ونحوها فيما يفيد استخدامها فيه، متوسعاً في فهم القرآن، مضيفاً ذلك إلى ما سبقه من فهم، وتفسير، واستخدامه لفكره تلقفاً من فيض الله تعالى الذي يؤتي الحكمة من يشاء، ولا حدود لبحور حكمته.. " (٢).

(١) أصول البحث العلمي ومناهجه للدكتور أحمد بدر ص ٢٥٠ - وكالة المطبوعات الكويتية ط ٧ - ١٩٨٤م. توزيع دار القلم بيروت. نقلاً عن (التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد) ص ٣٤٠.

(٢) صاغ هذا التعريف الأستاذ الدكتور عبد الغفور مصطفى - رحمه الله - في كتابه (التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد) ص ٣٤١. ط دار السلام ط الأولى. ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

وعلم التفسير هو أوسع العلوم الإسلامية قاطبة، ولا غرابة في ذلك؛ فهو علم يختص ببيان معاني القرآن الكريم، معجزة خاتم الأنبياء ﷺ، ذلك الكتاب الذي لا تتقضي عجائبه، وعليه مدار الهداية، والسعادة، في الدنيا والآخرة، وقد تكاثرت جهود المفسرين، عبر العصور؛ فظهرت مئات التفاسير، وكان لكل منها ما تميز به من حيث المنهج المتبع، وفي العصر الحديث تبلور علم جديد يدرس تاريخ التفسير وجهود المفسرين، وهو (علم مناهج المفسرين) (١)، وقد قسموا تلك المناهج أقساماً كثيرة، منها (منهج التفسير التحليلي) وهو المنهج الذي اقتضت طبيعة هذه الدراسة اتباعه ذلك أن التفسير التحليلي، يتجه إلى تفسير القرآن حسب ترتيب تلاوته، فيفسر الآيات محل الدراسة وفق هدفها وحدودها، وهو في هذه الدراسة: (الجانب البلاغي والتربوي)، وهذا المنهج التحليلي هو الغالب على مناهج المفسرين قديماً وحديثاً؛ ولعل السبب في ذلك يرجع إلى كونه يتبع الترتيب المصحفي (ترتيب التلاوة) وهو أمر يسهل معه الرجوع لتفسير آية محددة في سورة محددة بيسر؛ فهذا التفسير كان عبر التاريخ - ولا يزال - هو مرجع المتدبرين للقرآن الكريم أثناء تلاوة أورادهم اليومية من القرآن الكريم؛ لأن تلاوة القرآن الكريم تتم بهذا الترتيب فيحتاج القارئ والسامع إلى الفهم الجزئي المتدرج سواء عند التلاوة أو الاستماع، كما أن هذا المنهج هو الذي عليه مدار أبرز وجوه الإعجاز القرآني، وهو الإعجاز البلاغي؛ حيث يتناول بلاغة الحرف، وبلاغة الكلمة، وبلاغة التركيب، وبلاغة السياق. وفي إطار منهج التفسير التحليلي العام اعتمدت الدراسة كذلك على المنهج

(١) ألف في هذا العلم الكثير من الكتب منها (التفسير والمفسرون) للدكتور محمد حسين الذهبي. و(التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد) للدكتور عبد الغفور مصطفى. رحمهما الله تعالى.

الاستنباطي^(١) في استخراج الصور البيانية والنكات البلاغية والقواعد التربوية واتجهت إلى المنهج الاستقرائي^(٢) كلما دعت الحاجة.

خطة البحث: وفقاً لموضوع الدراسة اعتمدت الخطة الآتية:

١- مقدمة: اشتملت على التعريف بالبحث، ومصطلحات العنوان ومنهج البحث وخطته.

٢- المبحث الأول: مدخل الدراسة: ويحتوى على مقدمات ضرورية لتحقيق أهداف البحث وتتمثل في: (بيان بعض فضائل سورة الكهف- ذكر وحدتها الموضوعية - تحقيق حول زمن الرحلة إلى مجمع البحرين في حياة موسى عليه السلام- مناسبة القصة للآيات السابقة - مناسبة القصة لما سبقها من قصص في سورة الكهف -التناسب بين هذه القصة، والقصة التي تلتها وهي قصة ذي القرنين- مقارنة بين بداية قصة موسى والخضر، وبدايات قصص سورة الكهف الأخرى - التفسير النبوي للقصة على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

٣- المبحث الثاني: مشاهد القصة.

قسمت الدراسة تبعاً للآيات الكريمة، فبحثتها على ترتيب تلاوتها، وجعلت لكل مقطع منها عنواناً منتزِعاً من معانيها فجاءت على النسق التالي:

(١) المنهج الاستنباطي هو: الذي يربط العقل فيه بين المقدمات والنتائج أو بين الأشياء وعللها، على أساس المنطق والتأمل الذهني، فهو يبدأ بالكليات ليصل منها إلى الجزئيات. انظر: البحث العلمي مناهجه وتقنياته: د/ محمد زيان عمر، ص ٣٢، ط/ جدة بالسعودية، ١٣٩٤ هـ.

(٢) هو: الذي يبدأ بالجزئيات ليصل منها إلى قوانين عامة، المرجع السابق، ص ٣٢.

المشهد الأول: الاستعداد للرحلة والوصول للهدف.

المشهد الثاني: الاتفاق والمشاركة.

المشهد الثالث: حرق السفينة.

المشهد الرابع: قتل الغلام.

المشهد الخامس: تذكير وعتاب.

المشهد السادس: حياءً وإنصاف.

المشهد السابع: بناء الجدار.

المشهد الثامن: فراق ووفاء.

المشهد التاسع: سر السفينة.

المشهد العاشر: سر الغلام.

المشهد الحادي عشر: سر الجدار.

٤- الخاتمة وفيها النتائج.

٥- قائمة المراجع.

٦- فهرس الموضوعات.

التعريف بمصطلحات العنوان: (القصة - البلاغة - التربية).

أولاً: القصة. في اللغة: " القص تتبع الأثر يقال قصت أثره، والقصص الأثر...، والقصص الأخبار المتتبعه " (١) " والقاصُّ مَنْ يَأْتِي بِالْقِصَّةِ عَلَى وَجْهِهَا، كَأَنَّهُ يَنْتَبِعُ مَعَانِيهَا وَأَلْفَظَهَا " (٢). وقد وردت مادة قص في القرآن الكريم مراداً بها تتبع الأثر في موضعين من قصة موسى ﷺ: قول موسى ﷺ لفتهاه: ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾. الكهف: ٦٤ والثاني: قول أم موسى ﷺ: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾. القصص: ١١ " والقصص بكسر القاف جمعٌ واحده قصة، والقصة في لغة العرب الأخبار المروية، والأنباء المحكية... والعرب تجعل حكاية كل خبر قصة، إلا أن المتأمل فيما تعارف عليه أهل العلم والأدب أن القصة لون خاص من الأخبار ذو طبيعة خاصة، وعلى ذلك فكل قصة خبر، وليس كل خبر قصة، فما حدثنا الله به عن خلق السموات والأرض، وخلق الملائكة والجن أخبار، وليست بقصص، أما أخبار الرسل مع أقوامهم، والصراع بين الأخيار، والفجار فهو قصص كما أنه أخبار. " (٣).

وفي الاصطلاح: تُعرف القصة عموماً بأنها: " فنٌ حكاية الحوادث والأعمال بأسلوب لغوي ينتهي إلى غرض مقصود. وهي فن أدبي قديم صاحب الأمم

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ) ص ٤٠٤. المحقق:

صفوان عدنان الداودي - الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس ج ١٨/ص ٩٩. لمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)

المحقق: مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية.

(٣) صحيح القصص النبوي. د. عمر سليمان الأشقر ص ١٢.

من عهد البداوة، وإلى عهد ذروة الحضارة، ومكانتها ممتازة بين الفنون الأدبية لمرونته، واتساعه للأغراض المختلفة، ولجمال أسلوبه، وخفته على النفوس، وقد بلغ به القرآن ذروة السمو والكمال. (١)

وأما القصة القرآنية فيعرفها الشيخ الطاهر بن عاشور بأنها: "الخبر عن حادثة غائبة عن المُخْبِر بها، فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصاً مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم". (٢)

وتتمثل أهم الحكم العامة من ورود القصص في القرآن الكريم فيما يلي: يشهد على صدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- ويبين حقيقة الدين الإلهي الذي جاء به الرسل الكرام -عليهم السلام- وأنه دين واحد. ويعد من أهم وسائل الهداية والتربية والإصلاح. وفيه تعريف بطبائع الناس ووسائل علاجها وسنن الله في عقابها أو معافاتها، وفيه تثبيت لفؤاد النبي -صلى الله عليه وسلم- وصحابته الكرام -رضوان الله عليهم- وأهل الحق من بعدهم.

ثانياً: البلاغة. قال الله تعالى: ﴿... وَعَظُهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣)﴾ [النساء: ٦٣] قال الزمخشري: "قولا بليغاً يبلغ منهم ويؤثر فيهم" (٣)، وقال

(١) معجم علوم اللغة العربية. د. محمد سليمان الأشقر: ص ٣٢٠. نقلاً عن السابق نفس الموضوع بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير « تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» للإمام الطاهر ابن عاشور (المتوفى: ١٣٩٣هـ) ١ / ٣٥. دار التونسية للنشر - تونس.

(٣) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٥٢٧).

ابن عاشور^(١): "البليغ فعيل بمعنى بالغ بلوغاً شديداً بقوة، أي: بالغاً إلى نفوسهم متغلغلا فيها"^(٢).. قال الزجاج^(٣): "يقال: بلغ الرجل يبلغ بلاغة فهو بليغ: إذا كان يبلغ بعبارة لسانه كُنْهَ ما في قلبه"^(٤). وقد تكلم العلماء في حد «البلاغة» فقال بعضهم: «البلاغة»: إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وقيل: «البلاغة»: حسن العبارة مع صحة المعنى، وقيل: البلاغة: الإيجاز مع الإفهام، والتصرف من غير إضجار. قال خالد بن صفوان^(٥): أحسن الكلام ما قلّت ألفاظه، وكثرت معانيه، وخير الكلام ما شوّق أوله إلى سماع آخره، وقال غيره: إنما يستحق الكلام اسم البلاغة إذا سبق لفظه معناه، ومعناه لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"^(٦).

(١) ابن عاشور [١٢٩٦ - ١٣٩٣ هـ / ١٨٧٩ - ١٩٧٣ م] محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس، وأحد كبار علمائها، مفسر، لغوي، نحوي، أديب، من دعاة الإصلاح الاجتماعي والديني: ولد ونشأ وتعلم بتونس. انظر: معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر» لعادل نويهض (٢/ ٥٤١).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ١٠٨).

(٣) إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١ هـ). انظر طبقات النحويين واللغويين (ص: ١١١). لأبي بكر الإشبيلي، (المتوفى: ٣٧٩ هـ).

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٧٠).

(٥) خالد بن صفوان بن عبد الرحمن ابن عمرو... الأهمي أحد فصحاء العرب، وفد على عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك، وسمي الأهم لأنه ضرب بقوس على فيه فهتمت أسنانه. مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر (٧/ ٣٥١).

(٦) انظر زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (١/ ٤٢٧).

فالبلاغة هي: تأدية المعنى الجليل واضحاً بعبارةٍ صحيحةٍ فصيحةٍ لها في النفس أثرٌ خلاب، مع ملاءمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطبون. (١)

والبلاغة العربية كفن مدون استوت على سوقها، وأزهرت، وأثمرت بفضل القرآن العظيم؛ فلم يُعرف لكتابٍ فضلٌ على لغةٍ من اللغات في حفظها، ونمائها، وعزها، وانتشارها، كما يُعرف للكتاب العزيز من فضل على لغة العرب، وقد قسم العلماء البلاغة إلى ثلاثة علوم: المعاني، والبيان، والبديع (٢). ودراسة كل منها يكشف جانباً من أسرار التعبير وبلاغة المتكلم.

فأما علم المعاني: فـ " يبحث في أسرار تركيب الجملة، والمعاني التي تُفهم من تكوينها على نحو مخصوص، ومتعلقات الفعل، من ذِكرٍ، وحذفٍ، وتقديمٍ، وتأخيرٍ، وإيثارٍ مفردة على أخرى، أو صيغة من صيغ الفعل على غيرها، إلى ما سوى ذلك من بحث أسرار الجمال في نظم الجملة العربية " (٣).

و أما علم البيان فهو: " ذلك التصوير، الذي يهب الفكرة وضوحاً، وقوة؛ فيزيد تأثيرها في نفس المخاطب، أو القارئ، بالالتجاء إلى الخيال المصور، ومن

(١) البلاغة الواضحة، البيان والمعاني والبديع علي الجارمي، مصطفى أمين (ط. ١٢، مصر: دار المعارف، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م) ص ٨.

(٢) علم المعاني: هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي الذي يطابق مقتضى الحال. وعلم البيان: علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه. وعلم البديع: علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ورعاية وضوح الدلالة، أي الخلو عن التعقيد المعنوي. انظر: التعريفات للجرجاني (ص: ١٥٦).

(٣) من بلاغة القرآن ص ٢١ تأليف أحمد عبد الله الببلي البدوي (المتوفى: ١٣٨٤هـ) نهضة مصر - القاهرة - ٢٠٠٥م.

أجل هذا كان موضوع درسه التشبيه، والاستعارة، والكنائية، والمجاز، وهى صور تُوحى بالتجربة الشعورية أتم إichاء" (١).

وأما علم البديع فهو: " تلك المحسنات المعنوية حيناً، واللفظية حيناً آخر، مما يزيد في جمال اللفظ وقوة تأثيره، ووضوح المعنى" (٢).

ثالثاً: التربية: عرفها القاضي البيضاوي بأنها: " تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً" (٣). وعرفها بعض علماء التربية المعاصرين بأنها: " علم إعداد الإنسان المسلم لحياتي الدنيا والآخرة إعداداً كاملاً من الناحية الصحية، والعقلية، والعلمية، والاعتقادية، والروحية، والأخلاقية، والاجتماعية، والإرادية، والإبداعية، في جميع مراحل نموه في ضوء المبادئ، والقيم الإسلامية، وفي ضوء أساليب، ووسائل، وطرق التربية التي بينها الإسلام" (٤).

الميزات التربوية للقصاص القرآني: للقصة في التربية الإسلامية وظيفة تربوية لا يحققها لون آخر من ألوان الأداء اللغوي؛ ذلك أنها تمتاز بميزات جعلت لها آثاراً نفسية، وتربوية بليغة، محكمة، بعيدة المدى على مر الزمن، مع ما تنثريه من حرارة العاطفة، ومن حيوية، وحركية في النفس، تدفع الإنسان إلى تغيير

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/ ٢٨).

(٤) منابع مشكلات الأمة الإسلامية والعالم المعاصر ودور التربية الإسلامية وقيمها في معالجتها. تأليف د. مقداد يالجن. الرياض، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م، ص ٧١.

سلوكه، وتجديد عزيمته بحسب مقتضى القصة، وتوجيهها وخاتمته، والعبرة منها، وتتجلى أهم هذه الميزات فيما يلي:

أ- تشد القصة القارئ، وتوقظ انتباهه، دون توانٍ أو تراخٍ، فتجعله دائم التأمل في معانيها والتتبع لمواقفها، والتأثر بشخصياتها وموضوعاتها حتى آخر كلمة فيها. ذلك أن القصة تبدأ غالباً، وفي شكلها الأكمل، بالتتويه بمطلب أو وعد أو الإنذار بخطر، أو نحو ذلك مما يسمى عقدة القصة، وقد تتراكم، قبل الوصول إلى حل هذه العقدة، مطالب أو مصاعب أخرى، تزيد القصة حبكاً، كما تزيد القارئ، أو السامع شوقاً وانتباهاً، وتلهفاً على الحل أو النتيجة...

ب- تتعامل القصة القرآنية... مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة، متمثلة في أهم النماذج التي يريد القرآن إبرازها للكائن البشري، ويوجه الاهتمام إلى كل نموذج بحسب أهميته، فيعرض عرضاً صادقاً يليق بالمقام، ويحقق الهدف التربوي من عرضه...

ج- تربي القصة القرآنية العواطف الربانية وذلك: عن طريق إثارة الانفعالات كالخوف والترقب، والرضا والارتياح والحب، وكالتقزز والكره، كل ذلك يثار في طبقات القصة بما فيها من وصف رائع ووقائع مصطفاة...

د- تمتاز القصة القرآنية بالإفناع الفكري بموضوع القصة من خلال الطرق الآتية:

١- طريق الإيحاء، والاستهواء والنقص، فلولا صدق إيمان يوسف لما صبر في الجب على الوحشة، ولما ثبت في دار امرأة العزيز على محاربة الفاحشة، والبعد عن الزلل، هذه المواقف الرائعة توحى للإنسان بأهمية مبادئ بطل القصة وصحتها، وتستهوويه صفات هذا البطل، وانتصاره بعد صبر ومصابرة طويلة، فيتقمص هذه الصفات حتى إنه ليقلدها، ولو لم

يقصد إلى ذلك، وحتى إنه ليردد بعض هذه المواقف ويتصورها، ويسترجعها من شدة تأثره بها.

٢- طريق التفكير والتأمل: فالقصص القرآني لا يخلو من محاورات فكرية ينتصر فيها الحق، ويصبح مرموقاً محفوظاً بالحوادث، والنتائج التي تثبت صحته، وعظمته في النفس وأثره في المجتمع، وتأييد الله له... (١).

هذا: وقد حرصت - قدر الطاقة - أن تأتي الصور البلاغية، في سياقها الكلي العام، لمعنى الآيات الكريمة فلم يصرفني المعنى البلاغي الجزئي، عن البلاغة الكلية العالية ومقاصدها في الآيات الكريمة، ومزجت النكت البلاغية بما ارتبط بها من معاني التربية. وأسأل الله - تباركت أسماؤه - أن يتولني بلطفه ويحوظني بعنايته وتوفيقيه؛ فلولا توفيقه ما وصل قاصد إلى غايته، وصلوات ربي وتسليماته، على نبي الرحمة، ورسول الهداية العظمى صلوات الله وتسليماته عليه إلى يوم الدين.

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع لعبد الرحمن النحلاوي(ص: ١٨٩). دار الفكر. ط الخامسة والعشرون ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م. (ص: ١٩٢) باختصار وتصرف.

المبحث الأول: مدخل الدراسة

(١)

من فضائل سورة الكهف

- ١- روى البخاري بسنده عن أبي إسحاق، سمعت البراء بن عازب -رضي الله عنهما-، قرأ رجل الكهف، وفي الدار الدابة، فجعلت تنفر، فسلم، فإذا ضبابة، أو سحابة غشيتها، فذكره للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: «اقرأ فلان، فإنها السكينة نزلت للقرآن، أو تنزلت للقرآن». (١)
- ٢- روى مسلم بسنده عن أبي الدرداء، أن النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَالِ» (٢).
- ٣- روى البخاري بسنده عن ابن مسعود، يقول في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: «إنهن من العتاق الأول، وهن من تلاميذ». (٣)

(١) صحيح البخاري (٤ / ٢٠١) كتاب: المناقب باب: علامات النبوة في الإسلام حديث رقم: ٣٦١٤.

(٢) صحيح مسلم (١ / ٥٥٥) كتاب: صلاة المسافرين وقصرها. باب: فضل سورة الكهف، وآية الكرسي. حديث رقم: ٢٥٧.

(٣) صحيح البخاري (٦ / ١٨٥) كتاب: فضائل القرآن باب: تأليف القرآن حديث رقم: ٤٩٩٤. و(العتاق): جمع العتيق، وهو ما بلغ الغاية في الجودة. تلاميذ بكسر أوله أي: من قديم ما قرأته وتلاذد المال قديمه وطأرفه جديده. فتح الباري لابن حجر (١ / ٩٣).

(٢)

الوحدة الموضوعية في سورة الكهف

سورة الكهف من السور التي يغلب عليها محور القصص، فهو يمثل إحدى وسبعين آية، من مائة وعشر، يتكون منها أربعاً من القصص هي: قصة أهل الكهف، وقصة صاحب الجنيتين، وقصة موسى والعبد الصالح، وقصة ذي القرنين. وهذه القصص وإن تنوعت أساليبها وسياقاتها، فقد اتحدت في الغرض والغاية، والروح التي تجمع بينها، وتربطها ربطاً معنوياً، عميقاً وثيقاً؛ فجميعها يرسخ التمايز بين نظرتين مختلفتين لهذا الكون هما قصة الصراع بين الإيمان والمادية:

النظرة المادية: ترى أن هذا الكون خاضع لأسباب طبيعية تتحكم في العالم، وتتصرف فيه، وهي القوى الكونية التي تسيطر على هذا النظام، وهي الأسباب وخواص الأشياء التي قلماً تفارق هذه الأشياء، وقلماً تُخطيء، وفي الناس من اقتصر نظره على هذه الحياة، وعلى هذا العالم المادي المحسوس، ورأى أن المسببات والنتائج تابعة دائماً لأسبابها وعللها، مرافقة لها لازمة، ليس في الوجود من يحول بين هذه الأسباب وهذه المسببات، ويتصرف فيها بإرادته المطلقة، ويستطيع أن يوجد المسببات من غير أسباب، ويبدعها إبداعاً، وتعلق بهذه الأسباب، وعندها كالأرباب، وكفر بكل قوة وراء هذه الأسباب والخواص، وبكل قوة تسيطر على هذا العالم، وتحكمه حكماً مطلقاً كلياً، وكفر بالحياة بعدها، وبالبعث والنشور، وبذل جهده ومواهبه في تسخير هذه القوى الكونية، والأسباب والخواص، وتسخير المادة، وهام في سبيلها، وبالغ في تمجيدها وتقديسها حتى جعلها ربا وإلهاً، وأصبح يكفر بكل شيء سوى المادة والقوة، حتى إذا نال منها غايتها، وسخر بعضها أو أخضع بعضها لإرادته وحاجته، اعتقد ألوهيته، أو أعلن ربوبيته - بلسان المقال أو

بلسان الحال - واستعبد بني جنسه، وعات في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، واستباحها لأغراضه وشهواته، أو طموحه، أو مجد أمته ووطنه، أو أسرته وحزبه.

النظرة الإيمانية: تعارض النظرة الأولى في الأساس والمنهج، وهي أن وراء هذه الأسباب الطبيعية، والقوى الكونية، والخواص المودعة في الأشياء، قوة غيبية تملك زمام هذه الأسباب والخواص، وكما أن هذه الأسباب سبب لهذه المسببات، فالإرادة الإلهية القاهرة سبب لهذه الأسباب نفسها، تخلقها وتسيرها، وتفكها من مسبباتها إذا شاءت فهي سبب الأسباب، وهي علة العلل. وإليها المنتهى في سلسلة الأسباب والعلل، وإنَّ خالق هذا الكون، وخالق هذه الأسباب لم يفلت من يده زمام هذا الكون في حين من الأحيان، ولم تتحرر هذه الأسباب من رقه وحكمه، وهي لا تتمرد عليه ولا تستعصي، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الذي ربط الأشياء بالخواص، والمسببات بالأسباب، والمقدمات بالنتائج لحكمة بالغة، وإرادة قاهرة، وهو الذي يربط ويفك، ويثبت ويمحو، ويوجد الأشياء من العدم، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٨٢) [يس: ٨٢، ٨٣].

وإن هناك أسبابًا مؤثرة أخرى تعمل في هذا العالم، وفي مصير الأفراد والأمم، كالأسباب الطبيعية أو أشد، وتتبعها نتائج قد تكون أعظم وأضخم من النتائج الطبيعية، المادية التي تتبع أسبابها، وهي الإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة، وطاعة الله والعدل والعبادة، والرحمة، والمحبة، إلى غير ذلك من المعنويات، وأسباب تعمل عكسها، كالكفر والبغي، والفساد في الأرض، والظلم والشهوات، والآثام، إلى غير ذلك من المعنويات أيضًا. وإن من تمسك بالأسباب المعنوية الصالحة - من غير تعطيل للأسباب الطبيعية - صالحه هذا الكون، وطابت له الحياة، ويسره الله ليسرى وخرق له - في بعض الأحيان والمناسبات - بعض عاداته، وأخضع له الأسباب الطبيعية، ومن تمسك بعكسها من المعنويات والأخلاق والسلوك في الحياة، واعتمد على الأسباب الطبيعية فقط، وأسس عليها حياته، حاربه

هذا الكون وخاتته القوى التي أخضعها، وهو أحوج ما يكون إليها وثارت عليه الطبيعة.

إن سورة الكهف تمثل قصة الصراع بين النظرتين والعقيدتين والنفسيتين، صراع بين الإيمان بالمادة وما يتبعها، وبين الإيمان بالغيب، والإيمان بالله، وشرح لما يتبع كل نظرة من العقيدة، والعمل والأخلاق، والنتائج والآثار، وتحذير من اتخاذ النظرة الأولى التي تؤمن بالمادة والظاهر، وتكفر بالله والغيب.

شرح وتوضيح:

أولاً: " أصحاب الكهف والرقيم: هي قصة الإيمان والفتوة والثبات، والتضحية والجهاد، التي تتكرر في تاريخ الإنسانية، وفي تاريخ الحق والعقيدة، وبرهان على أن الأسباب خاضعة للإرادة الإلهية، صديقة للإيمان والعمل الصالح، فسبيل المؤمن أن يستميل هذه الإرادة بالإيمان والعمل الصالح ويستحق نصر الله وتأيده.

ثانياً: قصة صاحب الجنتين: فصاحب الجنتين لم يكن مشركاً بالله كعمامة المشركين، فليس في القرآن ما ينص على ذلك، أو يشير إليه، بل العكس يُشعر أسلوب القرآن بأنه كان يعرف الله ويؤمن به، فقد قال: ﴿ وَلَئِن رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ (٣٦) ﴿ [الكهف: ٣٦، ٣٧] فما كان شركه الذي تأسف عليه، وقرع عليه سن الندم: ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (٤٢) ﴿ [الكهف: ٤٢]؟! الظاهر الذي لا خفاء فيه، أنه كان أشرك بالله الأسباب، فاعتقدها المُصرفة المؤثرة، التي يرجع إليها الفضل في رخائه وثرائه، وازدهار ماله، واعتمد عليها، ونسي الله، وكفر بتأثيره وتصرفه.

ثالثاً: قصة موسى والخضر: وهي قصة هذه الحياة، وقصة هذا الكون، الذي نعيش فيه، إنها قصة تُثبت في صورة عملية، واضحة رائعة، أن وراء المعلومات

والمكتشفات في هذا العالم، وفي هذه الحياة مجهولات كثيرة، وأن ما يجهره الإنسان - وأعظم إنسان في عصره - أكثر مما يعلمه، وأنه دائماً يبني حكمه على ما يشاهده، ويشعر به، ولذلك يخطيء كثيراً ويتعثر كثيراً، وأنه لو انكشفت له حقائق الحياة، وبواطن الأمور وعواقبها، لتغير حكمه كثيراً، ونقض ما أبرم، وتثبت أنه لا ثقة بأحكامه وأقضيته، وميوله وانطباعاته، وأن لا إحاطة بهذا الكون الواسع، ولا يصح الإسراع في الحكم، والإلحاح على سوانح الآراء، فإن الحياة غامضة ملتوية، وأن في هذه الحياة ألغازاً، لم يستطع الإنسان - على ذكائه وعلمه وحرصه - أن يحلها، وأن في هذا الكون عقداً وغوامض لم يستطع العلم البشري مهما اتسع وارتفع أن يكشفها، وأن حياتنا اليومية العامة مليئة بالأخطاء الفاحشة، والأحكام السريعة، والخطوات المتهوره، والآراء المرتجلة، وأنه لو أسندت إليه إدارة هذا العالم الفسيح، ومنح الحرية التامة، والتصرف المطلق؛ لأفسد العالم، وأهلك الحرث والنسل، لأن نظره قاصر، وعلمه محدود، وقد خلق من عجل، وفطر على السرعة وقلة البصر. لقد اختار الله لتقرير هذه الحقيقة العظيمة - التي هي أساس الأديان أو الإيمان بالغيب - أعظم شخصية في عصره، والذي أوتي علماً كثيراً، وخيراً كثيراً، هو موسى - عليه الصلاة والسلام - أحد أولي العزم من الرسل.

العلم البشري لم يبلغ الكمال والغاية: ما أعجب الحقائق إذا ظهرت ! وما أبعد الشقة بين الصورة والحقيقة، والظاهر والباطن، وما أعقد هذه الحياة، وما أغمض هذا الكون، وما أكثر ألغاز الحياة، وما أجراً الإنسان في ادعائه أنه أحاط بكل شيء علماً، ووصل إلى الحقيقة في كل قضية! ما أبعد الخضر عن الصواب، وسبيل الرشاد في أوائل الأمور وما أقربه إليه، وما أرشده في عواقب الأمور! لقد تحقق أن هذه الحياة لا تزال تطلع بكل جديد، وتهجم بكل غريب، وتحقق أن العلم

البشري لم ينته إلى الحد الأخير، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦، ٧٧].

تحد للتفكير المادي: إن هذه القصة وما تشتمل عليه من روح ومغزي، تتحدى التفكير المادي الذي يُلح على أن الحياة هي التي فهمها الإنسان، وعلى أن هذا الكون هو الذي أحاط به علمًا، وأن ليست الحقيقة إلا ما تترأى للعيون، وأن الظواهر هي التي يصح عليها الحكم، وأن الإنسان يستحق أن تسند إليه إدارة هذا العالم، ويُخول حق التشريع فقد اكتمل عقلًا وعلمًا ودراسة، وبلغ أغوار الحقيقة، وأعماق العلم، وحقائق الكون. لقد قامت الفلسفات المادية على هذا الأساس، وقد قامت الحضارة العصرية على هذا التفكير والعقيدة، وسورة الكهف، - بعامة محتوياتها ومختلف آياتها - وقصة موسى والخضر بصفة خاصة تنقض هذا الأساس، وتهدم هذا البناء، وتنتهي القصة بقول الخضر لموسى: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢] والتأويل في اصطلاح القرآن هو الحقيقة وهكذا يتعجل الإنسان وينكر ويخطيء حتى تتجلى له الحقيقة، ويأتي التأويل.

رابعًا: قصة ذي القرنين: وهي قصة رجل جمع بين الإيمان والصلاح، والقوة الفائقة، وتسخير القوى والطاقات المهيأة للإنسان، واستخدام الوسائل الموجودة في عصره، فاستخدم كل ذلك - بعكس الطغاة المفسدين، والفاشين الظالمين - في صالح الإنسان وخدمة البشرية الصالحة^(١).

(١) انظر تأملات في سورة الكهف للشخ أبي الحسن الندوي ص ٣ وما بعدها. باختصار وتصرف. ط دار القلم بالكويت.

(٣)

زمن الرحلة إلى مجمع البحرين في حياة موسى عليه السلام

مرت حياة نبي الله موسى - عليه السلام - بمراحل لكل مرحلة أحداثها، وأشخاصها، وأماكنها، ويستطيع المتأمل لآيات قصته - عليه السلام - في القرآن الكريم أن يُحدد الفترة الزمنية لكل مرحلة على النحو الآتي:

المرحلة الأولى: من ولادته حتى التقاط آل فرعون له من اليم.

ولم يُحدد القرآن الكريم مدة مكث موسى - عليه السلام - بعد ولادته مع أمه في بيتهم قبل أن تلقيه في اليم، ولكن تلاحق الأحداث وعجلة آل فرعون في البحث عن مرضعة له فور التقاطه يُشير إلى أنه - عليه السلام - كان لا يزال في أشهره - إن لم تكن أيامه - الأولى. وهذه المرحلة كانت في مصر قطعاً؛ حيث كان يُقيم فرعون وقومه، ومعهم بنو إسرائيل.

المرحلة الثانية: من دخوله إلى قصر فرعون حتى خروجه من مصر خائفاً يتربص.

وهذه المرحلة استغرقت طفولته، وصباه، ومعظم شبابه؛ فالأحداث بعد ذلك تُشير إلى أنه خرج من مصر، وهو في العقد الثالث من عمره تقريباً؛ لأنه مكث في مدين عشر سنواتٍ وفاءً بمهر زوجته، ثم رجع إلى مصر وهو في العقد الرابع؛ يشير إلى ذلك الجمع بين قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقوله تعالى عن موسى - عليه السلام - ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)﴾ [القصص: ١٤، ١٥].

قال العلامة الطاهر بن عاشور: " ليس الأشد اسماً لعدد من سني العمر، وإنما سنو العمر مظنة للأشد. ووقته ما بعد الثلاثين سنة، وتاممه عند الأربعين سنة؛ ولذلك عطف على بلغ أشده قوله: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي بلغ الأشد، ووصل إلى أكمله". (١)

المرحلة الثالثة: خروجه من مصر حتى وصوله إلى مدين ولقياه الفتاتين ووالدهما الشيخ الكبير.

ولم يُحدد لنا القرآن مدة هذه الرحلة. ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدَرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥)﴾ [القصص: ٢١ - ٢٥].

المرحلة الرابعة:

زواجه - عليه السلام - بابنة الشيخ الكبير حتى وفائه بما التزم به كمهر لها، ومدة هذه المرحلة على الراجح عشر سنوات يُفهم ذلك من قول والد الفتاتين ﴿قَالَ إِنِّي

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٣).

أُرِيدُ أَنْ أَكْحِكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾.

وقول موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ (٢٨) [القصص: ٢٧، ٢٨]. قال الإمام بن كثير: "وقد دل الدليل على أن موسى -عليه السلام-، إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما"^(١). واستدل بما رواه الإمام البخاري بسنده عن سعيد بن جبير، قال: سألتني يهودي من أهل الحيرة^(٢) أيُّ الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري، حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت، فسألت ابن عباس، فقال: «قضى أكثرهما، وأطيبهما إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-^(٣) إذا قال فعل»^(٤).

المرحلة الخامسة: رحلة عودته من مدين إلى مصر.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٢٩) فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (٦ / ٢٣١).

(٢) مدينة قريبة من الكوفة كانت سكنا لملوك اللخمييين العرب في الجاهلية واسم الحيرة يعني البلد المسور. وكانت تسمى (الحيرة البيضاء) لحسنها. وفيها أقام الملوك اللخمييون القصرين الشهيرين: الخورنق والسدير. وهي في العراق كانت قاعدة المناذرة، بين النجف والكوفة، فتحها خالد بن الوليد وأظنها قد درست. انظر المعالم الأثرية في السنة والسيره (ص: ١٠٥) المؤلف: محمد بن محمد حسن شُرَّاب الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١١ هـ.

(٣) المراد كل رسول ويتناول هذا موسى -عليه السلام- بالأولى لأن الكلام عنه.

(٤) صحيح البخاري (٣ / ١٨١) كتاب: الشهادات. باب: من أمر بإنجاز الوعد.

الشَّجَرَةَ أَنْ يَأْمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَأْمُوسَىٰ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ (٣١) اسألك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين (٣٢) ﴿ [القصص: ٢٩ - ٣٢].

المرحلة السادسة: ذهابه إلى فرعون مبلغاً رسالة ربه - عز وجل - حتى خروجه من مصر ببني إسرائيل وانفلاق البحر وغرق فرعون وجنوده.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّقْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهٍ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) ﴿ [القصص: ٣٦ - ٤٣]

المرحلة السابعة: مرحلة معايشة موسى وهارون - عليهما السلام - لبني إسرائيل في سيناء والسعي في إصلاحهم حتى دعاء موسى أن يفرق الله بينهما وبين القوم الفاسقين.

وتشمل هذه المرحلة كل الأحداث التي جرت فيها مثل عبادة بني إسرائيل للعجل وقصة السامري، ولقاء موسى - عليه السلام - ربه والكتابة له في الألواح وغير ذلك من أحداث.

المرحلة الثامنة: مرحلة ما بعد فراقه لبني إسرائيل حتى وفاته - عليه السلام -.

وهي مرحلة ذكر القرآن الكريم بدايتها والحالة العامة لبني إسرائيل فيها وهي التيه في الأرض أربعين سنة وتحريم دخولهم الأرض المقدسة خلال تلك المدة قال الله تعالى: ﴿... قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾ [المائدة: ٢٥، ٢٦].

بعد عرض هذه المراحل نسأل: في أي مرحلة منها كانت رحلة موسى إلى

ومع الخضر ؟

لم ترد في القصة قرينة واضحة تُحدد ذلك! فهل يمكن من خلال التأمل، ومقارنة الأحداث الوصول إلى زمن تلك الرحلة في حياة نبي الله موسى - عليه السلام - ؟.

بإدء ذي بدء: أستبعد أن تكون رحلة موسى مع الخضر، وقعت بعد أن أذن الله له في مفارقة قومه هو وهارون؛ لأن الحديث الصحيح الذي يتحدث عن تلك الرحلة جاء فيه: " بَيْنَمَا مُوسَى فِي مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمُ مِنْكَ؟ " قَالَ مُوسَى: لَا، فَأَوْحَى اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- إِلَى مُوسَى: بَلَى، عَبْدُنَا خَضِرٌ، فَسَأَلَ مُوسَى السَّبِيلَ إِلَيْهِ،... " (١) إِذَا فَسَبَبَ الرَّحْلَةَ إِجَابَةَ مُوسَى - عَلَيْهِ

(١) صحيح البخاري كتاب: العلم. باب: مَا ذُكِرَ فِي ذَهَابِ مُوسَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْبَحْرِ إِلَى الْخَضِرِ. حديث رقم ٧٤ (١ / ٢٦). الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

السلام - على سؤالٍ ملأ من بني إسرائيل فهو لَمَّا يزل معهم يسألونه ويجيبهم، ولم يفارقهم الفراق الأخير بعدُ. كذلك تُستبعد مرحلة وجوده في قصر فرعون؛ لأنه لم يكن أوتى الرسالة.

وتُستبعد أيضًا مرحلة وجوده في مدين لسبيين واضحين:

الأول: أنه لم يكن هناك وجود لبني إسرائيل في مدين.

والثاني: أنه لم يكن قد أوتي الرسالة بعد.

إذا لم يتبق من تلك المراحل ما يحتمل حدوث تلك القصة إلا مرحلتين:

الأولى: مرحلة وجوده في مصر بعد عودته من مدين.

والثانية: مرحلة وجوده في سيناء مع بني إسرائيل بعد أن نجاهم الله من فرعون وقومه.

والأنسب لوقوع رحلة موسى - عليه السلام - إلى الخضر هي مرحلة وجوده مع قومه في سيناء بعد أن نجاهم الله من فرعون؛ فمرحلة وجود موسى - عليه السلام - في مصر بعد عودته من مدين كانت أحداثها لا تحتمل مفارقة موسى لقومه؛ فهي مرحلة استضعاف، وشدة وتربص، وتعذيب وتكيد لبني إسرائيل فيستبعد أن يترك موسى - وقد كُلف بالرسالة - قومه في مثل حالتهم تلك. بخلاف مرحلة وجودهم في سيناء فقد هلك عدوهم وأصبحوا في فسحة من أمرهم تسمح بمثل تلك الرحلة لنبيهم - عليه السلام - . والله أعلم.

(٤)

مناسبة القصة للآيات السابقة

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُورًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩)﴾ [الكهف: ٥٤ - ٥٩]

الآيات السابقة نعت على المشركين عنادهم وضلالهم، وتأبيهم عن الهدى، وقد جاءهم عفواً صفوياً من غير أن يسعوا إليه، ويبدلوا الجهد في طلبه، وقد كان جديراً بهم، أن يطلبوا الهدى لأنفسهم، وأن يبدلوا في ذلك الجهد والمال.. ولكنهم لم يفعلوا.. سفهاً، وغفلة! فإذا جاءهم الهدى، وطلبهم قبل أن يطلبوه، ثم زهدوا فيه، وردوه رداً منكرًا، كان ذلك سفهاً فوق سفه، وغفلةً فوق غفلة. وهذا نبي كريم من أنبياء الله، هو موسى -عليه السلام- قد كلمه ربه، وأنزل عليه آياته وكلماته، ومع هذا، فهو لا يزال يطلب العلم، ويجد في تحصيله وبينغى المعرفة، ويسعى للاستزادة منها.. وفي هذا ما يكشف عن مدى ما ركب سفهاء قريش وحمقاها، من جهل فاضح، وكبر صبياني غشوم! إذ كانوا يرون أنهم لا يحتاجون إلى علم، حتى ولو كان هذا العلم يطرق أبوابهم، ويدخل عليهم بيوتهم! (١)

(١) التفسير القرآني للقرآن (٨ / ٦٤٥، ٦٤٦) بتصرف.

(٥)

مناسبة القصة لما سبقها من حديث عن آدم عليه السلام.

لما جرى ذكر قصة خلق آدم وأمر الله الملائكة بالسجود له، وما عرض للشيطان من الكبر والاعتزاز بعنصره جهلاً بأسباب الفضائل، ومكابرةً في الاعتراف بها وحسدًا في الشرف والفضل، فضرب بذلك مثلاً لأهل الضلال عبید الهوى، والكبر، والحسد؛ أعقب تلك القصة بقصة هي مَثَلٌ في ضدها؛ لأنَّ تَطُّبُ ذي الفضل، والكمال للازدياد منهما وسعيه للظفر بمن يبلغه الزيادة من الكمال، اعترافاً للفاضل بفضيلته. وفي ذلك إيداء المقابلة بين الخلقين وإقامة الحجة على المماثلة، والمخالفة بين الفريقين المؤمنين، والكافرين، وفي خلال ذلك تعليم وتنويه بشأن العلم والهدى، وتربية للمتقين.... وفي سوق هذه القصة تعريض بأهل الكتاب بأن الأولى لهم أن يدلوا الناس على أخبار أنبياء إسرائيل وعلى سَفَرٍ لأجل تحصيل العلم والحكمة لا سفر لأجل بسط الملك والسلطان.

فجملته ﴿ وإذ قال موسى... ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ [الكهف: ٥٠] عطف القصة على القصة. والتقدير: واذكر إذ قال موسى لفتاه، أي اذكر ذلك الزمن وما جرى فيه. وناسبها تقدير فعل «اذكر» لأن في هذه القصة موعظة وذكرى كما في قصة خلق آدم (١).

التناسب بين هذه القصة، والقصة التي تلتها وهي قصة ذي القرنين

يقول الإمام البقاعي - رحمه الله - : " لما فرغ من هذه القصة التي حاصلها أنها طواف في الأرض لطلب العلم، عقبها بقصة من طاف الأرض لطلب

(١) التحرير والتنوير (١٥ / ٣٥٨). وانظر تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١ / ٤٧٧).

الجهاد، وقدم الأولى إشارة إلى علو درجة العلم لأنه أساس كل سعادة، وقوام كل أمر" (١).

قلت: ومن التناسب بينهما من حيث المقاصد والأهداف، أن قصة موسى مع الخضر درُسها الرئيس ومحورها الأساس، هو الإيمان بالقدر، وعدم الاستغراق في الأسباب الظاهرة؛ فإن من وراء وقائع الأيام يدٌ حكيمةٌ، تعملُ في الخفاء، تحفظ الضعيفَ وترعى حقه، وتصونُ ذريةَ الصالحين بعد رحيلهم، وتدبر للمساكين أسبابَ رزقهم، وتكف يد البطش عنهم. وأما قصة ذي القرنين، فدرسها الأساس ومحورها الرئيس، هو بيان أن الأخذ بالأسباب لا يتنافى مع الإيمان بالقدر؛ فإن الأسباب جزء من القدر الإلهي، فهذا الملك العبقري، في الاستفادة من الأسباب، لا يُفتن بنفسه ولا بالأسباب، بل يعتبرها فضل الله ورحمته. فشخصية الخضر، تمثل الإيمان بالقدر الإلهي، المخفي عن الناس، وهو رحمة من الله؛ مصداقاً لقوله: ﴿...آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا...﴾ (٦٥) ﴿ [الكهف: ٦٥]. وشخصية ذي القرنين، تمثل نموذج المؤمن بالقدر، المحسن الأخذ بالأسباب؛ فهو متوكل، لا متوكل، يعبد الله وحده، ويعلم أنه سبحانه، مَنْ وضع في الأسباب تأثيرها، ولو شاء لسلبها ذلك التأثير، وهذا التوكل رحمة من الله؛ مصداقاً لقوله: ﴿...قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨) ﴿ [الكهف: ٩٨]. فالمؤمن الحق، يوقن أنه يعيش متقلباً بين رحمت الله، الظاهر منها والمستور.

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢ / ١٢٨).

(٦)

مقارنة بين بداية قصة موسى والخضر

وبدايات قصص سورة الكهف الأخرى

ضمت سورة الكهف خمساً من القصص جرى التمهيد لثلاثة منها بضروب مختلفة من تصريف القول على النحو الآتي:

١- قصة فتية الكهف جرى التمهيد لها بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩)﴾ [الكهف: ٩]

٢- قصة صاحب الجنتين جرى التمهيد لها بقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا...﴾ [الكهف: ٣٢].

٣- قصة ذي القرنين جرى التمهيد لها بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣)﴾ [الكهف: ٨٣].

٤- أما قصة موسى والخضر فقد بدأت بأحد مشاهدتها الأساسية، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠)﴾ [الكهف: ٦٠] ولم يجر التمهيد لها كما فعل مع القصص الثلاث الأخرى، والحكمة في ذلك - والله أعلم - أن القصص الثلاث جديدة على السامع من كل النواحي؛ فهي بكل أشخاصها لم يسبق لها ذكر في القرآن الكريم؛ فناسبها نوع من التمهيد، أما قصة موسى والخضر، فقد سبق الحديث عن شخصية موسى -عليه السلام- كثيرًا فهناك حلقة وصل تجعل من القصة استكمالاً لما ذكره الله تعالى من حياة موسى -عليه السلام- ولذلك لم يجر التمهيد لها كما فعل مع القصص الثلاث الأخرى.

٥- ويشهد لهذا الاستنباط ما ورد في ذات السورة من قصة آدم -عليه السلام- فقد جرى ذكرها مباشرة من غير تمهيد تأسيساً على ما ذكر منها في السور الأخرى حيث قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

(٧)

التفسير النبوي للقصة

يُعد الحديث النبوي الوارد في تفسير هذه القصة أطول الأحاديث الواردة في تفسير قصص القرآن الكريم؛ وهذا يُشير إلى أهمية تلك القصة، وضرورة العناية بها عناية خاصة. كما يشير إلى ذلك بوضوح أيضاً قول النبي - صلى الله عليه وسلم: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا» (١).

قال الإمام البخاري: حدثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَمْرُو، قَالَ: أَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لَابْنِ عَبَّاسٍ: إِنَّ نَوْفًا الْبَكَالِيَّ يَزْعُمُ أَنَّ مُوسَى لَيْسَ بِمُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، إِنَّمَا هُوَ مُوسَى آخَرُ؟ فَقَالَ: كَذَبَ عَدُوُّ اللَّهِ حَدَّثَنَا أَبِيُّ بْنُ كَعْبٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَامَ مُوسَى النَّبِيُّ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فُسئِلَ أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، إِذْ لَمْ يَرُدِّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ (٢)، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ:

(١) سيأتي تخريجه في نهاية الحديث إن شاء الله تعالى.

(٢) قال العلامة الطاهر بن عاشور عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لَوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّبَنَّه وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) ﴿سورة العنكبوت﴾ "...و.جواب الملائكة إبراهيم بأنهم أعلم بمن فيها يريدون أنهم أعلم منه بأحوال من في القرية، فهو جواب

يَا رَبِّ، وَكَيْفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإِذَا فَدَّتَهُ فَهُوَ تَمٌّ، فَانْطَلِقْ وَانْطَلِقْ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، وَحَمَلًا حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، حَتَّى كَانَا عِنْدَ الصَّخْرَةِ وَضَعَا رُءُوسَهُمَا وَتَامَا، فَانْسَلِ الْحُوتُ مِنَ الْمِكْتَلِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَكَانَ لِمُوسَى وَقَتَاهُ عَجَبًا، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ لَيْلَتِهِمَا وَيَوْمَهُمَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: آتِنَا غَدَاةَنَا، لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا، وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ قَالَ مُوسَى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا

=عما اقتضاه تعريضه بالتذكير بإنجاء لوط، أي نحن أعلم منك باستحقاق لوط النجاة عند الله، واستحقاق غيره العذاب فإن الملائكة لا يسبقون الله بالقول وهم بأمره يعملون وكان جوابهم مطمئنا إبراهيم. فالمراد من علمهم بمن في القرية علمهم باختلاف أحوال أهلها المرتب عليها استحقاق العذاب، أو الكرامة بالنجاة.

وإنما كان الملائكة أعلم من إبراهيم بذلك لأن علمهم سابق على علمه ولأنه علم يقين ملقى من وحي الله فيما سخر له أولئك الملائكة إذ كان إبراهيم لم يوح الله إليه بشيء في ذلك، ولأنه علم تفصيلي لا إجمالي، وعمومي لا خصوصي. فلأجل هذا الأخير أجابوا بـ نحن أعلم بمن فيها. ولم يقولوا: نحن أعلم بلوط، وكونهم أعلم من إبراهيم في هذا الشأن لا يقتضي أنهم أعلم من إبراهيم في غيره فإن لإبراهيم علم النبوءة والشريعة وسياسة الأمة، والملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يشتغلون بغير ذلك إلا متى سخرهم الله لعمل. وبالأولى لا يقتضي كونهم أعلم بهذا منه أن يكونوا أفضل من إبراهيم، فإن قول أهل الحق إن الرسل أفضل من الملائكة، والمزية لا تقتضي الأفضلية، ولكل فريق علم أطلعه الله عليه وخصه به كما خص الخضر بما لم يعلمه موسى، وخص موسى بما لا يعلمه الخضر، ولذلك عتب الله على موسى لما سئل: هل يوجد أعلم منك؟ فقال: لا، لأنه كان حق الجواب أن يفكر في أنواع العلم .. فـ "معنى كون هذا العبد أعلم من موسى - عليه السلام - أنه يعلم علومًا من معاملة الناس لم يُعلمها الله لموسى. فالتفاوت في العلم في هذا المقام تفاوت بفنون العلوم، وهو تفاوت نسبي."

راجع التحرير والتنوير (٣٦٣ / ١٥) و(٢٤٣ / ٢٠).

قَصَصًا ﴿ فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، إِذَا رَجُلٌ مُسَجَّى بِثَوْبٍ، أَوْ قَالَ تَسَجَّى بِثَوْبِهِ، فَسَلَّمَ مُوسَى، فَقَالَ الْخَضِرُ: وَأَنْتَى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ (١) فَقَالَ: أَنَا مُوسَى، فَقَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رَشْدًا قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا، يَا مُوسَى إِنَّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعَلَّمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ عَلَّمَكُهُ لَا أَعَلَّمُهُ، قَالَ: سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا، وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا، فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُمُ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا، فَعَرَفَ الْخَضِرُ فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَجَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَفَرَّ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ، فَقَالَ الْخَضِرُ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعَلِمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ، فَعَمَدَ الْخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَابِ السَّفِينَةِ، فَنَزَعَهُ، فَقَالَ مُوسَى: قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ عَمَدْتَ إِلَيَّ سَفِينَتَهُمْ فَحَرَقْتَهَا لَتُغْرَقَ أَهْلُهَا؟ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ قَالَ: لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا - فَكَانَتْ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا-، فَانْطَلَقَا، فَإِذَا غُلَامٌ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَ الْخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلَاهُ فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ مُوسَى: أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟ قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا؟ - قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: وَهَذَا أَوْكَدُ - فَانْطَلَقَا، حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا، فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُواهُمَا، فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ، قَالَ الْخَضِرُ: بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ (٢)، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا، قَالَ: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ

(١) قوله: «وأنتى بأرضك السلام» استفهام تعجب، والكاف خطاب للذي سلم عليه فكان الخضر يظن ذلك المكان لا يوجد به قوم تحيتهم السلام، إما لكون ذلك المكان كان خلاء وإما لكونه مأهولا بأمة ليست تحيتهم السلام. التحرير والتنوير (١٥/ ٣٦٢).

(٢) قال الحافظ ابن حجر: " هو من إطلاق القول على الفعل ". انظر فتح الباري (١/ ٢٢٢).

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا »^(١). وبعد الانتهاء من مدخل الدراسة ننتقل بعون الله تعالى إلى المبحث الثاني وهو مشاهد القصة.

(١) صحيح البخاري (١ / ٣٥) كِتَابُ: الْعِلْمِ. بَابُ: مَا يُسْتَحَبُّ لِلْعَالِمِ إِذَا سُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَيَكِلُ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ. حديث رقم ١٢٢. وأخرجه مسلم في الفضائل. باب: من فضائل الخضر - عليه السلام - . رقم ٢٣٨٠.

مفردات الحديث: (نوف البكالي): هو تابعي صدوق وكان ابن امرأة كعب الأحمبار وقيل غير ذلك. (كذب عدو الله): أي أخبر بما هو خلاف الواقع. ومراد ابن عباس - رضي الله عنهما - الزجر والتحذير لا المعنى الحقيقي لهذه العبارة.

(فعتب): لم يرض منه بذلك وأصل العتب المؤاخذة. (بمجمع البحرين) ملتقى البحرين وفي تسمية البحرين أقوال. (مكتل) وعاء يسع خمسة عشر صاعا. (فانسل) خرج برفق وخفة. (سربا) مسلكا يسلك فيه. (نصبا) تعبأ. (مسا) أثرا (مسجي) مغطى. (وأنى بأرضك السلام) كيف تسلم وأنت في أرض لا يعرف فيها السلام. (نول) أجر. (فعمد) قصد. (الأولى) المسألة الأولى. (زكية) طاهرة لم تذنّب. (وهذا أوكد) أي قوله. (ألم أقل لك) لزيادة لك فهذا أوكد في العتاب. (استطعما) طلبا طعاما. (ينقض) يكاد يسقط. (قال الخضر بيده) أشار بها. (من أمرهما) ممن الأعاجيب والغرائب. انظر فتح الباري لابن حجر (٨ / ٤١٣). وما بعدها.

المبحث الثاني: مشاهد القصة

المشهد الأول: الاستعداد للرحلة والوصول للهدف

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيًا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف: ٦٠ - ٦٥].

انتقال الأسلوب من الأفراد إلى الجمع ودلالاته التربوية:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) ﴾.

يلاحظ أن نبي الله موسى - عليه السلام - تحدث أولاً بصيغة الأفراد؛ (لا أبرح - أبلغ - أمضي)؛ فهو يُخبر عن حال نفسه، وما عزم عليه، ولم يتكلم بصيغة الجمع التي تشملها هو وفتاه، وفي هذا إشارة إلى أنه يعرض مشاق الرحلة على فتاه قبل السفر، وأنها قد تطول إلى زمن لا يعلمه، فقد ذكر غايتها المكانية، وهي ﴿ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴾ أما غايتها الزمانية فقد جعلها تابعة للغاية المكانية، ولو استغرق الوصول إليها زمناً طويلاً جداً ﴿ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾. فـ "حقيقة الحقب وقت من الزمان مبهم يكون لتمييز سنة أو أقل أو أكثر".^(١) فالمعنى كما قال شيخ

(١) إعراب القرآن للنحاس (٢/ ٣٠٠).

الإسلام أبي السعود: " أسير زماناً طويلاً أتيقن معه فوات المطلب" (١) فهو لا يعلم نهايتها الزمانية، وإن كان يعلم نهايتها المكانية على جهة التقريب فمجمع البحرين يقع على مساحة واسعة من الأرض.

الدلالات التربوية:

هذا هدي نبوي كريم نلمح فيه أسلوباً تربوياً؛ حيث جعل المعلم تلميذه على بيئة من أمره، فيما يتعلق بمدّة غيابه عن أهله، حتى يُعد للأمر عدته، ويوطن نفسه على الصبر في ذلك السفر الذي قد يطول. كما ظهر أن موسى - عليه السلام - ألزم نفسه فقط، ولم يُدخل الفتى فيما ألزم نفسه به، وهذا من رفقه وأدبه - عليه السلام - فهي رحلة لا تلزم الفتى إلا إن قبلها، وقد فعل.

ولذلك تغير أسلوب كلام نبي الله موسى - عليه السلام - بعد ذلك فصار بصيغة الجمع الذي يشملهم هو وفتاه؛ وذلك أن الحال اختلف؛ إذ وافق الفتى على مشاركته في رحلته، وإن طال؛ يظهر ذلك في:

قوله تعالى: ﴿...فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاةً لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ (٦٢) [الكهف: ٦٢].

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ (٦٤) [الكهف: ٦٤، ٦٥].

وبذلك يتبين أن في هذا الموضع إيجاز بالحذف لما فهم من السياق، وهو الكلام الدال على موافقة الفتى لموسى - عليه السلام - بعدما سمع منه ما سمع.

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥/ ٢٣٢).

واستتبط العلماء من رحلة موسى - عليه السلام - هذه مشروعية " الرحلة في طلب العلم الذي ليس بفرض، وقد رحلت الصحابة فيه، وأذن لهم في الترحل في طلب الدنيا فضلاً عن الدين " (١). وترجم الإمام البخاري - رحمه الله - لأحد الأبواب التي روى فيها حديث موسى والخضر بقوله: " باب الخروج في طلب العلم " ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر، إلى عبد الله بن أنيس، في حديث واحد (٢). "... وذلك تنبيه على أن المتعلم لو سافر من المشرق إلى المغرب لطلب مسألة واحدة لحق له ذلك " (٣). وهكذا فقد " بدأت القصة مُشيدةً بخلقين عظيمين يحتاج إليهما الرجال الأبطال، هما: العزم الواثق، والاحتمال الطويل، ذاك ما تتضح به الآية: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ (٦٠) [الكهف: ٦٠]. أي لن يهدأ لي نشاط حتى أصل إلى " الخضر " ولو طالَت دونه أحقاب !!

(١) أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٣ / ٢٣٩).

(٢) صحيح البخاري كتاب العلم. (١ / ٢٦) قال البدر العيني: " أراد بذكر هذا الأثر المعلق التنبيه على فضيلة السفر، والرحلة في طلب العلم برا وبحرا. وجابر بن عبد الله هو الأنصاري الصحابي المشهور، وعبد الله بن أنيس، بضم الهمزة، مصغر أنس ابن مسعد الجهني، بضم الجيم وفتح الهاء، حليف الأنصار، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، وبعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحده سرية. واختلف في شهوده بدرًا. له خمسة وعشرون حديثًا... انظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري بتصرف (٢ / ٧٣).

(٣) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١ / ٤٧٩).

وموسى نبي من أولى العزم، فليس بدعاً أن تكون لديه هذه السمائل، وقد شكّا عمرٌ قديماً من عجز الصالح وخيانة القوي^(١)، والواقع أن الأعمال الكبار لا تتم إلا بقوي تقوي " (٢).

وفي هذه الرحلة يبرز العلم كقيمة ذاتية تطلب لذاتها فموسى -عليه السلام- تعددت طرق تعليمه من خلال الوحي، والذي يظهر من سياق القصة وما ورد في تفسيرها من السنة أن هذا العلم الذي لدى الخضر لم يكن واجباً على نبي الله موسى تعلمه؛ وإنما سعى إليه وصمم على تعلمه؛ لأن للعلم قيمة ذاتية بغض النظر عن كونه فرضاً أو نافلة.

وتشير القصة إلى أهمية اتباع السنن الإلهية والأخذ بالأسباب وذلك أن موسى -عليه السلام- عندما علم أن هذا العلم يمكن تعلمه بالأخذ بالأسباب أخذ بتلك الأسباب، ولم يطلب تعلمه بالوحي وذلك من أدبه وحكمته عليه السلام.

(١) قال عمر رضى الله عنه: اللهم أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة. منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري لحمزة محمد قاسم (٣٦٢ / ٥)
راجعته: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط. عني بتصحيحه ونشره: بشير محمد عيون. الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق - مكتبة المؤيد، الطائف - المملكة العربية السعودية. عام النشر: ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

(٢) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي ص ٢٣٥، ٢٣٦. ط دار الشروق.

كلمة "فتى" معناها ودلالاتها في هذا السياق:

العرب تُسمي الخادم فتى؛ لأن الغالب استخدام من هو في سن الفتوة. والإضافة في قوله تعالى: ﴿لَفَتَاهُ﴾ لتعظيم المضاف (١).؛ لأن الإضافة إلى

(١) انظر حاشية القنوي على البيضاوي ومعه حاشية ابن التمجيد ١٢/١١٥ ط دار الكتب العلمية. بيروت. الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م. "والمعنى المحوري لمادة (فتى) هو "مفارقة الحي طور طفولته أو حدثه بالغا طور شبابه: كما في الفتيان والأفتاء: ﴿...سَمِعْنَا فِتْيَ يَذْكُرُهُمْ...﴾ [الأنبياء: ٦٠]، ﴿...تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ...﴾، ﴿...وَوَخَلَّ مَعَهُ السَّجْنَ فِتْيَانٍ...﴾ [يوسف: ٣٠، ٣٦]. أما "الفتى: السخي الكريم وهو بين الفتوة فهو من الفتى: الشاب؛ لتمييز الشباب بطراءة الشباب وحماسه ونقاء فطرته قبل جساوة الحياة والتجارب. وكذلك: "الفتى والفتاة: العبد والأمة فأصل ذلك من استخدام صغار السن لختفهم وقوتهم فاستعمل لهؤلاء تطفأ: ﴿وَقَالَ لَفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢]، ﴿...فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ﴾ [النور: ٣٣] (وتأمل الآيات التي أوردناها يبين أن الفتاة هي من بلغت وصلحت، والفتى: الشاب الصالح للخدمة والمعاشرة المؤاخذ على تصرفاته). المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٦٢٠). وقال الإمام ابن العربي: "قوله تعالى: ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ [النساء: ٢٥]. يدل على أن فتى وفتاة وصف للعبيد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي». ومن هاهنا قال بعضهم: إن يوشع بن نون كان عبداً لموسى - عليه السلام - لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ [الكهف: ٦٠]؛ "وقال أيضاً " فظاهر القرآن يقتضي أنه عبد. وفي الحديث أنه كان يوشع بن نون. وفي التفسير أنه ابن أخته. وهذا كله ما لا يقطع به، فالوقف فيه أسلم" أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٣/ ٢٣٩).

قلت: روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاتي وفتاتي» صحيح مسلم (٤/ ١٧٦٤) كتاب: الألفاظ من الأدب وغيرها. باب: حكم إطلاق لفظة العبد، والأمة، والمولى، والسيد.

العظيم، والشريف تفيد التعظيم والتشريف، كما في قولهم: "بيت الله"، وقوله: ﴿ نَاقَةٌ لِلَّهِ ﴾ [الأعراف: ٧٣] (١).

قلت: وإيثار هذا اللفظ "فتى" للدلالة على مهمته في تلك الرحلة، وهي معاونة نبي الله موسى - عليه السلام - في رحلته، وظهر ذلك خلال مشاهد القصة بعد، وربما نستأنس من حاجة موسى - عليه السلام - لاصطحاب فتى يساعده أن هذه الرحلة كانت بعد أن كبرت سنه - عليه السلام - وأصبح في حاجة لمن يخدمه في سفره فقد سبقت له أسفار في حياته لم يرد فيها ذكر اصطحاب من يعاونه. والله تعالى أعلم.

بلاغة الإيجاز في مفتتح القصة.

ابتدئت القصة بحكاية كلام موسى - عليه السلام - المقتضي تصميماً على أن لا يزول عما هو فيه - أي لا يشتغل بشيء آخر حتى يبلغ مجمع البحرين - ابتداءً عجيباً في باب الإيجاز، فإن قوله ذلك يدل على أنه كان في عمل نهايته البلوغ إلى مكان، فعلم أن ذلك العمل هو سير سفر. ويدل على أن فتاه استعظم هذه الرحلة وخشي أن تتألمها فيها مشقة تعوقهما عن إتمامها، أو هو بحيث يستعظمها للعلم بأنها رحلة بعيدة، وذلك شأن أسباب الأمور المهمة، ويدل على أن المكان الذي يسير إليه مكان يجد عنده مطلبه. فحذف ذكر الغرض الذي سار لأجله موسى - عليه السلام - لأنه سيذكر بعد، وهو حذف إيجاز وتشويق، له موقع عظيم في حكاية

(١) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (١/ ٤٠٣) للشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي - إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي - دار طوق النجاة، بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ -

القصة، لإخراجها عن مطروق القصص إلى أسلوب بديع الحكم والأمثال قضاء لحق بلاغة الإعجاز. (١)

فمن الإيجاز بالحذف قوله: ﴿لَا أَبْرَحُ﴾؛ لأن فيه حذف خبر برح الناقصة اعتمادًا على قرينة الحال؛ تقديره: لا أبرح سائرًا.

قال الإمام الألويسي: "حَدَفَ الخبر اعتمادًا على قرينة الحال إذ كان ذلك عند التوجه إلى السفر، واتكالا على ما يعقبه من قوله: ﴿حَتَّى أَبْلُغَ﴾ إذ الغاية لا بد لها من مُغَيِّبٍ والمناسب لها هنا السير" (٢).

" و ﴿أَوْ﴾ لأحد الشئيين، والمعنى حتى يقع إما بلوغي المجمع، أو أمضي حقبا؛ أي: سيرتي زمانا طويلا. " (٣).

لماذا أسند النسيان إليهما بينما الناسي على الحقيقة هو الفتى ؟

يقول شيخ المفسرين الطبري: " وإنما جاز عندي أن يقال: ﴿نَسِيَا﴾ لأنهما كانا جميعا تزوداه لسفرهما، فكان حمل أحدهما ذلك مضافا إلى أنه حمل منهما، كما يقال: خرج القوم من موضع كذا، وحملوا معهم كذا من الزاد، وإنما حملة أحدهم، ولكنه لما كان ذلك عن رأيهم وأمرهم أضيف ذلك إلى جميعهم، فكذلك إذا نسيه حامله في موضع قيل: نسي القوم زادهم، فأضيف ذلك إلى الجميع بنسيان حامله ذلك، فيجرى الكلام على الجميع، والفعل من واحد، فكذلك ذلك في قوله: ﴿نَسِيَا﴾

(١) التحرير والتنوير (١٥ / ٣٦١) بتصرف.

(٢) تفسير الألويسي = روح المعاني (٨ / ٢٩٣).

(٣) انظر تفسير الألويسي = روح المعاني (٨ / ٢٩٤) وتفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥ / ٢٣٢).

حُوْتَهُمَا؛ لأن الله - عزّ ذكره - خاطب العرب بلغتها، وما يتعارفونه بينهم من الكلام" (١).

وقال العلامة الشنقيطي: "أسند النسيان إليهما؛ لأن إطلاق المجموع مرادًا بعضه أسلوب عربي كثير في القرآن وفي كلام العرب، وقد أوضحنا أن من أظهر أدلته قراءة حمزة والكسائي (٢): ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)﴾ [البقرة: ١٩١]، من القتل في الفعلين لا من القتال، أي: فإن قتلوا بعضكم فليقتلهم بعضكم الآخر، والدليل على أن النسيان إنما وقع من فتى موسى دون موسى قوله تعالى عنهما: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢)﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣)﴾ [الكهف: ٦٢ - ٦٤]؛ لأن قول موسى: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ يعني به الحوت فهو يظن أن فتاه لم ينسه، كما قاله غير واحد، وقد صرح فتاه: بأنه نسيه بقوله: ﴿فَأِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ...﴾ الآية.

والملاحظ أن الفتى نسب النسيان لنفسه أولاً فقال: ﴿فَأِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ ثم نسب الإنساء إلى الشيطان فقال: ﴿وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ وليس هناك تعارض بين النسبتين.

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٨ / ٥٧).

(٢) قال الإمام ابن الجزري: " (واختلفوا) في:...فإن قاتلوكم فقرأ حمزة والكسائي وخلف، ولا تقتلوهم، حتى يقتلوكم، فإن قتلوكم بحذف الألف فيهن، وقرأ الباقون بإثباتها. انظر النشر في القراءات العشر (٢ / ٢٢٧).

لأن الفعل (نسى) الثلاثي الذي نسبه الفتى إلى نفسه غير الفعل (أنسى) الرباعي الذي نسبه الفتى إلى الشيطان فالشيطان هو الذي وقع منه الإنساء أى جعل الفتى ينسى. والفتى هو الذي وقع منه النسيان

قال الشيخ الشنقيطي: قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَمَا أُنْسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ ﴾، دليل على أن النسيان من الشيطان كما دلت عليه آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) ﴾ [الأنعام: ٦٨] (١).

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) ﴾ " فيه إشارة إلى أن الفعل الذي لا احتياج فيه، ولا لزوم يحصل به المشقة العظيمة، والتعب وأما عكسه فلا " (٢) " ويؤيده التقييد باسم الإشارة فإنه يُفيد أنا كم سافرنا ولم نتعب ولم يعرض لنا إعياء لكن لقينا من سفرنا هذا نصبًا. " (٣) " أي الذي سافرناه في هذا اليوم خاصة، ولذلك أشار إليه بأداة القرب (٤) وقال الطيبي: " وفي الإشارة بـ ﴿ هذا ﴾ إشعارٌ بأن هذا المسير كان أتعب لهما مما سبق، فإن رجاء المطلوب يُقربُ البعيد، والخيبة تُبعدُ القريب " (٥).

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للإمام الشنقيطي (٣/ ٣٢١).

(٢) حاشية القونوي على البيضاوي ومعه حاشية ابن التمجيد ١٢/١٢٢.

(٣) السابق نفسه.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي (١٢/ ٩٧).

(٥) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للإمام الطيبي (حاشية الطيبي على الكشاف) (٩/

قلت: ويشهد لهذا الاستنباط ما ورد في الحديث: "...وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنْ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ" (١). والحكمة في حصول الجوع والتعب له حين جاوز؛ أن يطلب الغذاء؛ فيذكر الحوت؛ فيرجع إلى حيث يجتمع بمراده" (٢).

ومن فقه التربية في ذلك: ترتيب الأولويات بحيث يبدأ بواجب الوقت ويحدد الهدف الذي يسعى إليه بدقة.

وقال الإمام القرطبي: "... وفي هذا دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدر في الرضا، ولا في التسليم للقضاء لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط" (٣). "والجملة في محل التعليل للأمر بإيتاء الغذاء إما باعتبار أن النَّصَبَ إنما يعتري بسبب الضعف الناشئ عن الجوع، وإما باعتبار ما في أثناء التغذي من استراحة ما" (٤).

ومن فقه التربية في ذلك: الاعتراف بالحاجات الفطرية للإنسان من طعام وراحة وأن مراعاتها لا تتنافى مع الكمال الذي يصبو إليه المؤمن. وأن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل بل هو من التوكل الذي أمر الله تعالى به.

(١) صحيح البخاري (١ / ٣٥) كِتَابُ: الْعِلْمِ. بَابُ: مَا يُسْتَحَبُّ لِلْعَالِمِ إِذَا سُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَيَكِلُ الْعِلْمَ إِلَى اللَّهِ. حديث رقم ١٢٢. وأخرجه مسلم في الفضائل. باب: من فضائل الخضر - عليه السلام - رقم ٢٣٨٠.

(٢) تفسير الألويسي = روح المعاني (٨ / ٢٩٨).

(٣) تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن (١١ / ١٤).

(٤) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥ / ٢٣٣).

نوع الاستئناف: الاستئناف بياني (١) كأنه قيل فما صنع الفتى حين قال له موسى -عليه السلام- ما قال؟ فقيل قال ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ أي: التجأنا إليها وأقمنا عندها. وفي رواية البخاري (٢) أن موسى -عليه السلام- حين قال لفتاه: لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا: " قال: قد قطع الله عنك النصب" (٣).

لماذا ذكر الإيواء إلى الصخرة؟

وذكرُ الإيواء إليها - مع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغ مجمع البحرين- لزيادة تعيين محلِّ الحادثة؛ فإن المجمع محلٌّ متسعٌ لا يمكن تحقيقُ المراد المذكور بنسبة الحادثة إليه، ولتمهيد العذر فإن الإيواء إليها والنومَ عندها مما يؤدي إلى النسيان عادة (٤).

(١) "الاستئناف البياني: هو الذي تنقطع بسببه الصلة الإعرابية بين الجملة المستأنفة والجملة التي قبلها، دون الصلة المعنوية بينهما؛ فكلتاها مستقلة بنفسها في الإعراب وحده، أما في المعنى فلا بد بينهما من نوع ارتباط يجعل الثانية -في الغالب- بمنزلة جواب عن سؤال ناشئ عن معنى الأولى.

أما غير البياني: فتقطع فيه الصلة الإعرابية والمعنوية بين الجملتين، فتكون الجملة المستأنفة مستقلة بإعرابها وبمعناها الجديد. انظر: النحو الوافي للدكتور عباس حسن (٤ / ٣٩٠).

(٢) صحيح البخاري. كتاب: تفسير القرآن. باب: قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: ٦١] (٦ / ٩٠).

(٣) تفسير الألويسي = روح المعاني (٨ / ٢٩٨).

(٤) انظر تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥ / ٢٣٣).

لماذا أوقع النسيان على اسم الحوت ؟

وإيقاع النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغداء - مع أنه المأمور بإيتائه - قيل: للتببيه من أول الأمر على أنه ليس من قبيل نسيان زاده في المنزل، وأن ما شاهده ليس من قبيل الأحوال المتعلقة بالغذاء من حيث هو غداء، وطعام، بل من حيث هو حوت كسائر الحيتان مع زيادة، وقيل للتصريح بما في فقدته من إدخال السرور على موسى - عليه السلام - مع حصول الجواب (١). " على أن هذا الإنساء ليس مفوتاً لطاعة، بل فيه ترقية لهما في معارج المقامات العالية؛ لوجدان التعب بعد المكان الذي فيه البغية" (٢) " وضم حفص الهاء في ﴿...أُنْسَانِيَهُ...﴾ وهو قليل في مثل هذا التركيب قلة النسيان في مثل هذه الواقعة، والجمهور على الكسر، وأمال الكسائي فتحة السين" (٣).

والاستفهام في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ يراد به الاستبعاد وفي إيثار أن والفعل في قوله: ﴿أَنْ أذْكَرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣] على المصدر نوع مبالغة لا تخفى (٤). ومن البلاغة العطف بالفاء في قوله سبحانه: ﴿نَسِيًا حَوْتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾، والعطف بالواو في قوله سبحانه: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦١]؛ لأن الفاء للتعقيب والعطف؛ فكان اتخاذ الحوت للسبيل عقيب النسيان فذكر بالفاء، وفي الآية الأخرى لما حيل بينهما بقوله: ﴿وَمَا أُنْسَانِيَهُ﴾

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني (٢٩٩ / ٨) بتصرف.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٩٩ / ١٢).

(٣) تفسير الألوسي = روح المعاني (٣٠٠ / ٨). وانظر: النشر في القراءات العشر (١ / ٣٠٥).

(٤) تفسير الألوسي = روح المعاني (٣٠٠ / ٨) بتصرف.

إِنَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَدْكُرَهُ ﴿﴾ زال معنى التعقيب وبقي العطف المجرد وحرفه الواو (١). وفي الآيات طباق بين قوله: نسيت) وقوله: (أذكره) (٢).

وقال في الآية الأولى قال: ﴿...فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾، مراعاة لحال الحوت ووصف الطريقة التي نزل بها إلى الماء.

وقال في الآية الثانية: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ مراعاة لحال الفتى وتعجبه من الحال التي عاد بها الحوت إلى الماء.

﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) ﴾

الإشارة بـ ﴿ ذَلِكَ ﴾ إلى ما تضمنه خبر الفتى من فقد الحوت. ومعنى كونه المبتغى أنه وسيلة المبتغى. وإنما المبتغى هو لقاء العبد الصالح في المكان الذي يفقد فيه الحوت والارتداد: مطاوع الرد كأن رادًا ردهما. وإنما ردتها إرادتهما، أي رجعا على آثار سيرهما، أي رجعا على طريقهما الذي أتيا منه (٣).

(١) أسرار التكرار في القرآن = البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرمانى (ص: ١٧٠).
بتصرف.

(٢) الطباق في اللغة: وضع طبق على طبق، كوضع غطاء القدر منكنفا على فم القدر حتى يغطيه بإحكام، ومنه إطباق بطن الكف على بطن الكف الآخر، تقول: طباق الشيء على الشيء مطابقة وطباقا، أي: أطبقه عليه، وهذا الإطباق يقتضي في الغالب التعاكس، فبطن الغطاء على بطن القدر يقتضي أن يكون ظهر الغطاء إلى الأعلى وظهر القدر إلى الأسفل. والطاق في الاصطلاح: هو الجمع في العبارة الواحدة بين معنيين متقابلين، على سبيل الحقيقة، أو على سبيل المجاز، ولو إيهاما، ولا يشترط كون اللفظين الدالين عليهما من نوع واحد كاسمين أو فعلين، فالشرط التقابل في المعنيين فقط. البلاغة العربية للميداني (٢/ ٣٧٤)

(٣) التحرير والتنوير بتصرف (١٥/ ٣٦٨)

واستنبط الإمام البقاعي من قوله تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أن الأرض كانت رملاً، لا عَلمَ فيها، ورجح أنه مجمع النيل بالبحر المالح عند دمياط، أو رشيد من بلاد مصر، قال " ويؤيده نقر العصفور في البحر الذي ركبا في سفينته للتغذية - كما في الحديث^(١)، فإن الطير لا يشرب من الملح، ومن المشهور في بلاد رشيد أن الأمر كان عندهم... " (٢).

من معالم التربية: أن غاية الرحلة لما لاحت لموسى -عليه السلام- وفتاه أنستهما النصب وزال عنهما الشعور بالجوع والتعب، واستأنفا السير يقصان آثارهما دون استمهال وهو ما يشير إليه العطف بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾. وكذلك من يجعل له غاية نبيلة في علمه وعمله فكلما اقترب منها زاد نشاطه وتجدد عزمه وشحذت همته.

من بلاغة التنكير، والإضافة، والتقديم والتأخير:

تنكير ﴿عبدًا﴾ للتفخيم، والتعظيم. وعدل عن الإضافة إلى التنكير، والصفة؛ لأنه لم يسبق ما يقتضي تعريفه، وللإشارة إلى أن هذا الحال الغريب العظيم الذي ذكر من قصته ما هو إلا من أحوال عباد كثيرين لله تعالى. وما منهم إلا له مقام معلوم (٣).

(١) يقصد ما جاء في الحديث: "...فجاء عصفور، فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر... صحیح البخاری (١/ ٣٦) كتاب: العلم. باب: ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢/ ١٠٥).

(٣) انظر التحرير والتنوير (١٥/ ٣٦٩).

والإضافة في ﴿عِبَادِنَا﴾ للتشريف والاختصاص، أي: عبداً جليل الشأن ممن اختلف بنا، وشرف بالإضافة إلينا والتتوين في ﴿رَحْمَةً﴾ للتفخيم، وكذلك التتوين في ﴿عِلْمًا﴾ أي: علماً لا يكتفه كنهه، ولا يُقادر قدره، وهو علم الغيوب وأسرار العلوم الخفية، ويفهم من فحوى (١): ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ أو من تقديمه على ﴿عِلْمًا﴾ اختصاص ذلك بالله تعالى كأنه قيل علماً يختص بنا، ولا يُعلم إلا بتوقيفنا، وفي اختيار ﴿عِلْمَانَاهُ﴾ على آتيناها من الإشارة إلى تعظيم أمر هذا العلم ما فيه! (٢).

وقوله: ﴿رَحْمَةً﴾ "أي وحيًا ونبوة، وكونه نبياً قول الجمهور (٣). و(من) ابتدائية، أي آتيناها رحمة صدرت من مكان القرب، أي الشرف، وهو قرب تشريف بالانتساب إلى الله، وعلماً صدر منه أيضاً. وذلك أن ما أوتيه من الولاية أو النبوة رحمة عزيزة، أو ما أوتيه من العلم عزيز، فكأنهما مما يدخر عند الله في مكان القرب التشريفي من الله فلا يُعطى إلا للمصطفين" (٤).

ولأن الرحمة أعم من العلم عبر عنها بكلمة "عند" العامة. بينما عبر عن الرحمة بـ"لدى" لخصوصيتها قال الراغب: "لَدُنْ أَخْصَصَ مِنْ «عِنْدِ»، لِأَنَّهُ يَدُلُّ

(١) الفحوى والإشارة المفهوم، وعرف المفهوم بأنه ما يقتبس من الألفاظ من فحواها وإشارتها لا من صيغتها. فالمنطوق: ما دل عليه اللفظ في محل النطق. والمفهوم: ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق. انظر مذكرة في أصول الفقه للإمام الشنقيطي: (ص: ٢٨١).

(٢) انظر تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥/ ٢٣٤) وتفسير الألوسي = روح المعاني (٨/ ٣١١). بتصرف.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (١٢/ ١٠٥).

(٤) التحرير والتتوير لابن عاشور (١٥/ ٣٦٩).

على ابتداء نهاية. نحو: أقيمت عنده من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فيوضع لدن موضع نهاية الفعل" (١).

من معالم التربية:

أن الرحمة لا بد أن تسبق العلم وتقارنه وتمتزج به فالعلم الخالي من الرحمة يضر ولا ينفع بل يفتح أبواب الشرور على الإنسانية وما شقيت الإنسانية إلا عندما أصبح العلم خاليًا من الرحمة وصار وسيلة لصنع ما يدمر الحياة.

وأن " العلم موهبة من مواهب الله يخص به من يشاء من عباده، ويفضل بعضهم على بعض فيه؛ فلا تحطُ زيادة علم واحد درجة فضيلة الآخر، ولا فضيلة الآخر تحيل أن يكون من دونه أعلم منه. ألا ترى أن موسى - صلى الله عليه وسلم - قصر علمه عما كان يفعله الخضر - وهو لا محالة أفضل منه - ولم يتخط درجة نبوته وفضله، لأن سبقه الخضر إلى علم لم يعلمه. وهذا حجة لنا فيما نختار قول الأصاغر من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بعض الأمكنة على قول الأكابر، ونرى الحجة في بعض الأشياء مع الأنزل من العلماء دون الأعلى منهم؛ فلا تكون خطأ من درجات الأكابر والفاضلين، ولا طعنًا عليهم، وبخسًا لحقوقهم " (٢).

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٧٣٩).

(٢) انظر النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام (٢/ ٢١٤). للإمام أحمد بن محمد الكرجي القصاب (المتوفى: نحو ٣٦٠هـ) تحقيق: الجزء ١: علي بن غازي التويجري الجزء ٢ - ٣: إبراهيم بن منصور الجنيدل الجزء ٤: شايح بن عبده بن شايح الأسمرى ط: دار النشر: دار القيم - دار ابن عفان. الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

المشهد الثاني: الاتفاق والمشاركة

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) ﴿ [الكهف: ٦٦ - ٧٠].

أين ذهب الفتى ؟

لم يعد هناك ذكر للفتى بداية من هذا المشهد، ويرى بعض المفسرين أنه تابع الرحلة معهما، ولم يرد له ذكر؛ لكونه تبعًا لموسى - عليه السلام - يقول الإمام أبو حيان "... ولم يضم الفتى؛ لأنه في حكم التبع، وقيل رده موسى - عليه السلام - إلى بني إسرائيل" (١).

والأوجه عندي - والله أعلم - أن مهمة الفتى قد انتهت وأن موسى - عليه السلام - صرفه لشأنه؛ لأن المقام يستدعي ألا يستكمل معهما الرحلة؛ فإذا كان الخضر قد قبل صحبة موسى بعد عهد وميثاق، وهو كليم الله؛ فمن باب أولى ألا يقبل صحبة من هو دونه بمراحل بعيدة في العلم والعمل.

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من السياق؛ كأنه قيل: فما جرى بينهما من الكلام؟ فقيل: " قَالَ لَهُ مُوسَى " - عليه السلام - ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي ﴾ استئذان منه - عليه السلام - في اتباعه له بشرط التعليم، ويفهم ذلك من (على) فقد قال الأصوليون: إن (على) قد تستعمل في معنى يفهم منه كون ما بعدها شرطاً لما قبلها كقوله تعالى: ﴿... يُبَايِعُكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يَشْرُكَكَ ﴾ [الممتحنة: ١٢] أي بشرط عدم الإشراف...، فيكون المعنى هل اتبعك باذلاً لتعليمك إياي مما علمت

(١) البحر المحيط في التفسير (٧/ ٢٠٦).

رُشْدًا أَي عَلِمًا ذَا رَشْدٍ وَهُوَ إِصَابَةُ الْخَيْرِ^(١). وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: هَلْ أَتْبَعُكَ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْعَرَضِ؛ بِقَرِينَةٍ أَنَّهُ اسْتِفْهَامٌ عَنِ عَمَلِ نَفْسِ الْمُسْتَفْهَمِ. وَالِاتِّبَاعُ: مُجَازٌ فِي الْمَصَاحِبَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٨] (٢). وَهَنَّاكَ مُوَازِنَةٌ فِي قَوْلِهِ: (رُشْدًا) وَقَوْلِهِ (خَبْرًا) وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ يَرَادُ بِهِ النَّفْيُ.

معالم تربوية في سؤال موسى - عليه السلام - اتباع الخضر:

هذه الآيات تدل على أن موسى - عليه السلام - راعى أنواعا كثيرة من الأدب والالطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر. وأتى بنهاية التواضع لمن هو أعلم منه، إرشاداً لما ينبغي في طلب العلم رجاء تسهيل الله له والنفع به^(٣):

أحدها: أنه جعل نفسه تبعاً له؛ لأنه قال: هل أتبعك.

وثانيها: أنه استأذن في إثبات هذه التبعية؛ فإنه قال: هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعاً لك؟ وهذا مبالغة عظيمة في التواضع.

وثالثها: أنه قال: ﴿مِمَّا عَلَّمْتَ﴾ وصيغة (من) للتبعيض، فطلب منه تعليم بعض ما علمه الله، وهذا أيضاً مُشْعِرٌ بِالتَّوَاضُعِ كَأَنَّهُ يَقُولُ لَهُ لَا أَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَجْعَلَنِي مُسَاوِيًا فِي الْعِلْمِ لَكَ، بَلْ أَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَعْطِينِي جِزَاءً مِنْ أَجْزَاءِ عِلْمِكَ، كَمَا يَطْلُبُ الْفَقِيرُ مِنَ الْغَنِيِّ أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِ جِزَاءً مِنْ أَجْزَاءِ مَالِهِ.

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني (٨ / ٣١١). يتصرف.

(٢) التحرير والتتوير (١٥ / ٣٦٩).

(٣) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢ / ١٠٩).

ورابعها: أن قوله: ﴿مِمَّا عَلَّمْتَ﴾ اعتراف بأن الله علمه ذلك العلم.
وخامسها: أن قوله: ﴿...رُشْدًا﴾ طلبٌ منه للإرشاد، والهداية، والإرشاد هو الأمر الذي لو لم يحصل لحصلت الغواية والضلال.
وهكذا ينبغي أن يكون الهدف الأساس من التعليم تكوين نفسية راشدة في ذاتها مرشدة لغيرها.

وسادسها: أن قوله: ﴿...تُعَلِّمَن مِمَّا عَلَّمْتَ...﴾ معناه أنه طلب منه أن يعامله بمثل ما عامله الله به، وفيه إشعار بأنه يكون إنعامك عليّ عند هذا التعليم شبيهاً بإنعام الله تعالى عليك في هذا التعليم.

وسابعها: أن قوله: ﴿أَتَّبِعْكَ﴾ يدل على طلب متابعته مطلقاً في جميع الأمور غير مقيد بشيء دون شيء.

وثامنها: أنه ثبت بالأخبار^(١) أن الخضر عرف أولاً أنه نبي بني إسرائيل وأنه هو موسى صاحب التوراة، وهو الرجل الذي كلمه الله - عز وجل - من غير واسطة وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة، ثم إنه - عليه السلام - مع هذه المناصب الرفيعة، والدرجات العالية الشريفة، أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التواضع، وذلك يدل على كونه - عليه السلام - أتياً في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة، وهذا هو اللائق به؛ لأن كل من كانت إحاطته بالعلوم أكثر، كان علمه بما فيها من البهجة، والسعادة أكثر؛ فكان طلبه لها أشد، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد.

(١) جاء في الحديث الصحيح (...فقال: أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم،...) صحيح البخاري (١/ ٣٦) كتاب: العلم. باب: ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله.

وتاسعها: أنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ فأثبت كونه تبعاً له أولاً، ثم طلب ثانياً أن يُعلمه، وهذا منه ابتداءً بالخدمة، ثم في المرتبة الثانية طلب منه التعليم.

وعاشرها: أنه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي...﴾ فلم يطلب على تلك المتابعة على التعليم شيئاً؛ كأنه قال لا أطلب منك على هذه المتابعة المال، والجاه، ولا غرض لي إلا طلب العلم (١).

بلاغة التأكيد في قوله: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) [الكهف: ٦٧].

في الآية الكريمة نفي لأن يصبر معه على أبلغ وجه؛ حيث جاء بإن المفيدة للتأكيد، وبلن، ونفيها أكد من نفي غيرها، وعدل عن لن تصبر إلى ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ﴾ المفيد لنفي الصبر بطريق برهاني؛ لأن الاستطاعة مما يتوقف عليه الفعل فيلزم من نفيه نفيه، ونكر ﴿صَبْرًا﴾ في سياق النفي، وذلك يفيد العموم أي لا تصبر معي أصلاً شيئاً من الصبر، وعلل ذلك بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ إيداناً بأنه -عليه السلام- يتولى أموراً خفية المراد منكورة الظواهر، والرجل الصالح -لا سيما صاحب الشريعة- لا يتمالك أن يشمئز عند مشاهدتها، وكأنه علم مع ذلك حدة موسى -عليه السلام- ومزيد غيرته التي أوصلته إلى أن أخذ برأس أخيه يجره" (٢).

(١) انظر تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١ / ٤٨٣) بتصرف.

(٢) تفسير الألوسي = روح المعاني (٨ / ٣١٤).

من معالم التربية المستنبطة من جواب الخضر:

أن المتعلم على قسمين:

الأول: متعلم ليس عنده شيء من العلم، ولم يمارس القيل، والقال، ولم يتعود التقرير والاعتراض.

والثاني: متعلم حصل العلوم الكثيرة، ومارس الاستدلال والاعتراض. ثم إنه يريد أن يخالط إنساناً أكمل منه ليلبغ درجة التمام والكمال.

والتعلم في هذا القسم الثاني شاق شديد؛ وذلك لأنه إذا رأى شيئاً، أو سمع كلاماً فربما كان ذلك بحسب الظاهر منكراً، إلا أنه كان في الحقيقة حقاً صواباً، فهذا المتعلم لأجل أنه أَلْفَ القيل والقال، وتعود الكلام والجدال يغتر بظاهره؛ ولأجل عدم كماله لا يقف على سره وحقيقته، وحينئذ يقدم على النزاع، والاعتراض، والمجادلة، وذلك مما يثقل سماعه على الأستاذ الكامل المتبحر، فإذا اتفق مثل هذه الواقعة مرتين أو ثلاثة حصلت النفرة التامة، والكراهة الشديدة، وهذا هو الذي أشار إليه الخضر بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ إشارة إلى أنه أَلْفَ الكلام، وتعود الإثبات، والإبطال، والاستدلال، والاعتراض (١).

واستنبط نجم الدين الطوفي (٢) من جواب الخضر جواز الإعراض عن صحبة المرید والتلميذ؛ إذا علم أن الطريق صعبٌ عليه، وطى الأسرار عنه لذلك،

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١ / ٤٨٤).

(٢) الصَّرْصَرِي (٦٥٧ - ٧١٦ هـ = ١٢٥٩ - ١٣١٦ م) سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصرى، أبو الربيع، نجم الدين فقيه حنبلي، من العلماء. ولد بقرية طوف - أو طوفا - (من أعمال صرصر: في العراق) ودخل بغداد سنة ٦٩١ هـ ورحل إلى دمشق سنة

والاقتصار به على ما يطبق من ذلك الطريق، اقتداء بالخضر، قال: " وهو من سياسة المشايخ، والعلماء للمريدين، والطلبة. وفي الأثر: «حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله» (١).

بلاغة التأكيد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) ﴾ [الكهف: ٦٩]

"﴿ستجدني﴾ أكد الوعد بالسين؛ ثم أخبر عنه - سبحانه - أنه قوى تأكيده بالتبرك بذكر الله تعالى لعلمه بصعوبة الأمر على الوجه الذي تقدم الحث عليه في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] ليعلم أنه منهاج الأنبياء وسبيل الرسل" (٢).

" قال موسى - عليه السلام - ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ معك غير معترض عليك ﴿ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ عطف على ﴿ صَابِرًا ﴾ والفعل يعطف على المفرد المشتق كما في قوله تعالى: ﴿ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ [الملك: ١٩] بتأويل أحدهما بالآخر، والأولى فيما نحن فيه التأويل في جانب المعطوف أي: ستجدني

= ٧٠٤ هـ وزار مصر، وجاور بالحرمين، وتوفي في بلد الخليل (فلسطين) واتهم بالرفض وعذر عليه. انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٦: ٣٩

(١) الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية لنجم الدين الطوفي (ص: ٤١٥). والحديث أخرجه البخاري في كتاب: العلم. باب: من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا. قال: " وقال علي: «حدثوا الناس، بما يعرفون أتحبون أن يكذب، الله ورسوله» حدثنا عبيد الله بن موسى عن معروف بن خربوذ عن أبي الطفيل عن علي بذلك. أ هـ والمعنى: أي إذا حدث الناس بما يشتهه عليهم ولا يعرفونه ربما كذبوا بما جاء عن الله تعالى أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢ / ١١٠)

صابراً وغير عاصٍ، وفي وعد هذا الوجدان من المبالغة ما ليس في الوعد بنفس الصبر" (١). وقد زاد التأكيد من خلال العطف بالواو على " صابراً " لبيان التمكن في كل من الوصفين " (٢). وقد " رجا موسى -عليه السلام- لحرصه على العلم وازدياده، أن يستطيع معه صبراً بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر، فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله، علماً منه بشدة الأمر وصعوبته، وأن الحمية التي تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق، هذا مع علمه أن النبي المعصوم الذي أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه، برئ من أن يباشر ما فيه غمزة في الدين، وأنه لا بد لما يستسمح ظاهره من باطن حسن جميل، فكيف إذا لم يعلم" (٣).

بلاغة نظم الآية الكريمة:

قال الإمام الطيبي - طيب الله ثراه -: " أما بيانُ بلاغة هذا التركيب، فإنه لو قُدم الشرط بأن يقال: إن شاء الله ستجدي صابراً لفات التكرير والتوكيد المطلوب، ولو أخر بأن يقال: ستجدي صابراً إن شاء الله. لاختل إرادة الاهتمام لكلمة التبرك، ولعدم حُسْنُ موقع الاعتراض، فإنه من تحاسين الكلام، فالتركيب قريبٌ من قوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] فيكون من باب الطرد والعكس" (٤).

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥ / ٢٣٤).

(٢) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢ / ١١٠)، بتصرف.

(٣) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (٩ / ٥١٩).

(٤) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (٩ / ٥١٨). والطرده والعكس هو: كلُّ كلامين يُقرَّرُ الأوَّلُ بمنطوقه مفهوم الثَّاني وبالعكس. انظر: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (١٢ / ٢٦٠).

المقارنة بين قول موسى - عليه السلام - : ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ صَابِرًا﴾
وقول إسماعيل - عليه السلام - : ﴿...سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ .

أن " فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي اتِّصَافِهِ بِالصَّبْرِ مَا لَيْسَ فِي الْوَصْفِ: بِصَابِرٍ، لِأَنَّهُ يُفِيدُ أَنَّهُ سَيَجِدُهُ فِي عِدَادِ الَّذِينَ اشْتَهَرُوا بِالصَّبْرِ وَعَرَفُوا بِهِ، أَلَا تَرَى أَنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا وَعَدَ الْخَضِرَ قَالَ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ [الْكَهْفُ: ٦٩] لِأَنَّهُ حُمِلَ عَلَى التَّصْبِيرِ إِجَابَةً لِمُقْتَرَحِ الْخَضِرِ".(١).

من معالم التربية في وعد موسى عليه السلام:

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ [الْكَهْفُ: ٦٩] في هذا الوعد تواضع شديد، وإظهار للتحمل التام، وكل ذلك يدل على أن الواجب على المتعلم إظهار التواضع بأقصى الغايات، وأما المعلم فإن رأى أن في التغليظ على المتعلم ما يفيد نفعًا وإرشادًا إلى الخير. فالواجب عليه ذكره؛ فإن السكوت عنه يُوقِع المتعلم في الغرور والنخوة وذلك يمنعه من التعلم" (٢). " وفيه استحباب تعليق الأمور المطلوبة والأراجي ونحوها بالمشيئة، احترازًا من التالي المكذب اقتداء بموسى - عليه السلام - وبما سبق في أوائل السورة(٣).

(١) التحرير والتنوير (٢٣ / ١٥٢).

(٢) انظر تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١ / ٤٨٥).

(٣) يقصد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِيْءٍ إِنِّْي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤)﴾ [الْكَهْفُ: ٢٣، ٢٤].

فإن قيل: موسى - عليه السلام - علق صبره على المشيئة ولم يصبر، وسليمان - عليه السلام - ترك التعليق في رجاء حصول الأولاد للجهاد فلم يحصلوا^(١)؛ فقد استوى التعليق وعدمه، فما فائدته؟

وجوابه: أن التعليق بالمشيئة ليس موجباً لحصول المطلوب، كيف وأن مقتضاه الترديد بين أن يشاء الله فيفعل أو لا يشاء فلا يفعل!؟

وإنما فائدته أن الإنسان إذا تأدب مع الله - عز وجل - بتعليق الأمور بمشيئته وتقيدها بإرادته، كان أجدر بحصول مراده وأمنيته، على أننا لا نسلم أن موسى لم يحصل له ما علق على المشيئة، فإنه كان نبياً ذا كتاب وشريعة، وهو إمام عدل، وحق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأنه لما رأى الخضر قد خرق سفينة قوم مساكين، وقتل غلاماً لم يبلغ الحلم لم يتجاوز الإنكار بالقول إلى الإنكار بالفعل فالصبر المهم قد حصل وأفاد تعليقه بالمشيئة، ولعله لولا ذلك لم يصبر، ولكان أقدم على تغيير ما يراه منكرًا بيده " (٢).

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَأَنَا تَسَأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)﴾

" ﴿فَلَا تَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ تشاهده من أفعالي فضلا عن المناقشة والاعتراض ﴿حَتَّى أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي حتى أبتدئك ببيانه، والغاية على ما

(١) روى البخاري بسنده قال:.... سمعت أبا هريرة - رضي الله عنه -، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة، أو تسع وتسعين كلهن، يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، والذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله، فرسانا أجمعون " صحيح البخاري (٢٢ / ٤) كتاب: الجهاد والسير. باب: من طلب الولد للجهاد.

(٢) الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية (ص: ٤١٥). بتصرف كثير.

قيل مضروبة لما يفهم من الكلام؛ كأنه قيل أنكى بقلبك على ما أفعل حتى أبينه لك، أو هي لتأبيد ترك السؤال فإنه لا ينبغي السؤال بعد البيان بالطريق الأولى، وعلى الوجهين فيها إيذان بأن كل ما يصدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة" (١).

معالم تربوية:

قال العلامة نجم الدين الطوفي: " فيه استحباب تأديب المشايخ للمريدين بالوصايا الحسنة من ترك الاعتراض ونحوه، والتزام المرید ذلك إذا وثق بحسن طريق الشيخ وسلوكه لمقتضى وصية الخضر، وفيه وفيما بعد جواز الاعتراض على المشايخ فيما يخالف ظاهر الشرع ممن له ذلك من أولي الأمر العام اقتداء بموسى، وأن فاعل ما يخالف ظاهر الشرع إذا ادعى أن ذلك جائز في العلم الباطن ونحوه، لا يسمع منه... " (٢). ويقول العلامة الخضر حسين (٣): "...وفي قصة موسى والخضر - عليهما السلام -، واتباع الأول للثاني بصفة متعلم، ثم إنكاره عليه خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، عبرة للمتعلمين والمعلمين، فللمتعلمين حق الإنكار، وعلى المعلمين أن لا يستكفوا " (٤).

(١) انظر تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١ / ٤٨٥).

(٢) الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية (ص: ٤١٥).

(٣) الإمام محمد بن الخضر حسين تونسي هاجر إلى مصر وتولى مشيخة الأزهر (توفى: ١٣٧٧ هـ).

(٤) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (٥ / ٢ / ٥٠).

المشهد الثالث: خرق السفينة

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢)﴾ [الكهف: ٧١ - ٧٣].

لماذا عُرِفَتْ ﴿السَّفِينَةُ﴾؟ عرفها لإرشاد السياق بذكر مجمع البحرين إلى أن انطلاقهما كان لطلب سفينة، فكانت لذلك كأنها مستحضرة في الذهن^(١). ويرى الإمام أبو حيان أن الألف واللام في السفينة لتعريف الجنس إذ لم يتقدم عهد في سفينة مخصوصة^(٢). ولم يقرن «خرق» بالفاء؛ لأنه لم يكن مسبباً عن الركوب، ولا كان في أول أحيائه^(٣). والاستفهام في أخرقها للإنكار. ومحل الإنكار هو العلة بقوله: لتغرق أهلها؛ لأن العلة ملازمة للفعل المستفهم عنه؛ ولذلك توجه أن يُغَيَّرَ موسى - عليه السلام - هذا المنكر في ظاهر الأمر، وتأكيد إنكاره بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾. والإمْر - بكسر الهمزة -: هو العظيم المفضع. يقال: أمر كفرح إمرًا، إذا كثر في نوعه. ولذلك فسره الراغب بالمنكر، لأن المقام دال على شيءٍ ضارٍ. ومقام الأنبياء في تغيير المنكر مقام شدة وصراحة. ولم يجعله نكراً كما في الآية بعدها؛ لأن العمل الذي عمله الخضر نريعة للغرق، ولم يقع الغرق بالفعل^(٤).

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢ / ١١٠)

(٢) البحر المحيط في التفسير (٧ / ٢٠٦).

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢ / ١١١).

(٤) التحرير والتنوير (١٥ / ٣٧٥).

من معالم التربية:

قال العلامة الطيبي: " قال في خرق السفينة: ﴿أَخْرَقَتْهَا لِتَغْرُقَ أَهْلَهَا﴾ ولم يقل: لتغرقنا، فنفسي نفسه واشتغل بغيره في حالة يقول فيها المرء: نفسي نفسي" (١).
واللام في ﴿لِتَغْرُقَ﴾ يصح أن تكون للعاقبة بناء على أن موسى - عليه السلام - حسن الظن بالخضر (٢)، أو للتعليل بناء على أنه الأنسب بمقام الإنكار (٣) وقراءة حمزة والكسائي... ﴿... لِیَغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ على إسناد الفعل إلى الأهل، وكون اللام على هذه القراءة للعاقبة ظاهر جداً (٤).

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (٩/ ٥١٧).
(٢) لام العاقبة: وهي التي يسميها الكوفيون لام الصيرورة هذه اللام هي ناصبة لما تدخل عليه من الأفعال بإضمار أن والمنصوب بعدها بتقدير اسم مخفوض. وهي ملتبسة بلام المفعول من أجله وليست بها وذلك قولك أعددت هذه الخشبة ليميل الحائط فأدعمه بها وأنت لم ترد ميل الحائط ولا أعددتها للميل لأنه ليس من بغيتك وإرادتك ولكن أعددتها خوفاً من أن يميل فتدعمه بها واللام دالة على العاقبة، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾؛ وهم لم يلتقطوه لذلك إنما التقطوه ليكون لهم فرحاً وسروراً فلما كان عاقبة أمره إلى أن صار لهم عدواً وحزناً جاز أن يقال ذلك فدللت اللام على عاقبة الأمر والعرب قد تسمي الشيء باسم عاقبته كما قال تعالى: ﴿نِيَّ أَرَانِي أَعْصِرُ خُمْرًا﴾؛ إنما كان يعصر عنباً تؤول عاقبته إلى أن يكون خمراً فسميها بذلك " اللامات (ص: ١١٩): عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٣٧هـ) المحقق: مازن المبارك الناشر: دار الفكر - دمشق الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٣) لام التعليل: حرف جر يتصل بالفعل المضارع فينصبه بأن مضمرة بعده وهو يبين أن ما بعده علة لحدوث ما قبله، نحو: قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَيَّ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٩) { [الحديد: ٩]. انظر السابق (٤) انظر تفسير الألوسي = روح المعاني (٨/ ٣١٧).

قرأ الجمهور لتغرق - بمتناة فوقية مضمومة - على الخطاب. وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف ليغرق - بتحتية مفتوحة ورفع أهلها على إسناد فعل الغرق للأهل (١). وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ أَي: أتيت وفعلت ﴿شَيْئًا إِمْرًا﴾ أَي: داهياً منكراً، والإمر بمعنى كثر قاله الكسائي فأصله كثير، والعرب - كما قال ابن جني في سر الصناعة - تصف الدواهي بالكثرة" (٢). وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ وبعده: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾؛ لأن الإمر بمعنى (العجب) والعجب يستعمل في الخير والشر بخلاف النكر؛ لأن ما ينكره العقل فهو شر؛ وخرق السفينة لم يكن معه غرق؛ فكان أسهل من قتل الغلام وإهلاكه؛ فصار لكل واحد معنى يخصه.

بلاغة الاعتذار:

﴿قال لا تؤاخذني﴾ بما نسيتُ اعتذار بنسيان الوصية على أبلغ وجه كأن نسيانه أمر محقق عند الخضر - عليه السلام - لا يحتاج أن يفيد إياه استقلالاً وإنما يلتبس منه ترك المؤاخذة به فـ ﴿ما﴾ مصدرية والباء صلة المؤاخذة أي لا تؤاخذ بنسياني وصيتك في ترك السؤال عن شيء حتى تحدث لي منه ذكراً، والتمس ترك المؤاخذة بالنسيان؛ لأن الكامل قد يؤاخذ به، وهي مؤاخذة بقلّة التحفظ التي أدت إليه كما وقعت لأول ناس وهو أول الناس (٣) وإلا فالمؤاخذة به نفسه لا تصح لأنه غير مقدور... فأنطلقا الفاء فصيحة أي: فقبل عذره فخرجا من السفينة فأنطلقا (٤).

(١) السابق (٣٧٧ / ١٥). وانظر النشر في القراءات العشر (٢ / ٣١٣).

(٢) تفسير الألويسي = روح المعاني (٨ / ٣١٧) وعبارة ابن جني: " يصفون الدواهي بالكثرة والعموم والاشتغال والغلبة ". سر صناعة الإعراب لابن جني (٢ / ٢٦٨).

(٣) يقصد الإمام الألويسي سيدنا آدم عليه السلام.

(٤) انظر تفسير الألويسي = روح المعاني (٨ / ٣١٧).

من معالم التربية:

- ١- (في حفظ المال): أن خرق السفينة دليل على أن للولي أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صلاحًا، مثل أن يخاف على ريعه ظالما فيخرب بعضه. وقال أبو يوسف: يجوز للولي أن يُصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض (١).
- ٢- (في رحمة الخلق) أن موسى -عليه السلام - لم يقل لتغرقني؛ لأن الذي غلب عليه في الحال فرط الشفقة عليهم، ومراعاة حقهم.
- ٣- (في إنكار المنكر) أن قلوب المؤمنين مجبولة على إنكار المنكر، وغير مالكة للصبر على احتماله، لأن موسى - صلى الله عليه وسلم - وعد الخضر أن يصبر على ما يراه منه، فلما رأى ما فعل أنكره عليه.
- ٤- (في فقه الوفاء بالوعد) أن من وعد وعدًا يريد الوفاء به عند قوله، ثم عارضه دون الوفاء مانع قطعه عنه لم يكن خُلفًا، ولا كان عليه حرج بل لو رأى الرشد في ترك الإنجاز فلا حرج،... قال - صلى الله عليه - " من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه " (٢)، فقد أمره أن يعمد ترك الوفاء بما قال باليمين فما لم يؤكد باليمين أخرى أن يتداركه. والله أعلم. (٣)

(١) انظر تفسير القرطبي (١١ / ١٩).

(٢) روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، قال: «من حلف على يمين، فرأى غيرها خيرا منها، فليكفر عن يمينه، وليفعل» صحيح مسلم (٣ / ١٢٧٢) كتاب: الأيمان. باب: ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرا منها، أن يأتي الذي هو خير، ويكفر عن يمينه.

(٣) انظر النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام للكرجي القصاب (٢ / ٢١٦).

٥- (في فقه المعلم) أن من خصائص المعلم الحق أن يظهر بعض التسامح تجاه سلوك من يتعلم منه (١).

المشهد الرابع: قتل الغلام

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِنَفْسِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤)﴾ [الكهف: ٧٤].

كانت من أبشع جرائم فرعون، قتله أبناء بني إسرائيل، وموسى عليه السلام يحمل في طيات نفسه، وقائع ذلك الماضي الأليم، ويتذكر ما سمعه من الكلام الإلهي، عند جبل الطور، شارحاً له قصة نجاته من ذات المصير ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧)﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠)﴾ [طه: ٣٧ - ٤٠].

بتلك الخلفية من الذكريات الخاصة، وتعاليم الوحي التي تلقاها في الألواح والتوراة، تُكرّم الإنسان وتصون دمه، وأنفاس النبوة الرحيمة بين جنبيه، وقف موسى عليه السلام متألماً أشد الألم، مستنكراً بكل ما أوتى من قدرة على البيان، أمام فاجعة قتل ذلك الغلام؛ فما هي ذكريات الطفولة، وفواجع الأهلين في فلذات الأكباد، ممزوجة برحمة النبوة، ورقة الطبع، وتعاليم الوحي تهجم عليه، وهو يرى غلاماً، تمكنت فيه أسباب الحياة، مقتولاً أمام عينيه، ليس على يد جنود فرعون، بل على يد

(١) انظر أسرار التعليم والتعلم ص ١٧٣ سليمان محمد موسلمان ط دار وحي القلم. الأولى

من شدَّ إليه الرحال، ليجد عنده جديداً في باب الرحمة والعلم الإلهي !!؛ لذلك لم يكن مستغرباً، أن تتفجر الكلمات حادة قوية على ترجمان فؤاده: ﴿...أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤)﴾ [الكهف: ٧٤]. كل كلمة منها تحمل مرارة الماضي، وعجب الحاضر، ولوم الفاعل، وشناعة الجرم، وحنان النبوة، وحكمة الشريعة: ﴿أَقْتَلْتَ﴾ استفهام المتعجب المنكر. ﴿نَفْسًا﴾ بصيغة التذكير، وكأنه يستحضر ما تقرر في شريعته المكلف بتبليغها: ﴿...مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وقوله: ﴿زَكِيَّةً﴾ طاهرة هي حقيقة بالحفظ لا القتل ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، وقد زاد موسى عليه السلام هذا المعنى إحصاءً لحققة التعجب والالتهام، وبيان شناعة الجريمة؛ فالغلام القتل لم يقتل نفساً أخرى ليقتل بها، ولا يتأتى منه ذلك لصغر سنه، وهو فوق ذلك غير مؤاخذ على أفعاله فلم يبلغ الحلم بعد. أو كما قال القاضي البيضاوي - رحمه الله -: " نبه على أن القتل إنما يُباح حداً، أو قصاصاً، وكلا الأمرين مُنتف". (١)

ولجلالة قدر المخاطب في نفس موسى عليه السلام قدم مسوغات الحكم قيل النطق به، أما مسوغات الحكم، فهي الكلمات القوية المحكمة، التي سبق بيان مغزاها، وأما الحكم فقد جاء مؤكداً باتاً قاطعاً: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾. والنكر هو: " الداهية، والأمر العظيم" (٢).

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٣ / ٢٨٩).

(٢) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة (١ / ٤١٠).

قال الإمام الألويسي: "... بنى وجه تغيير النظم الجليل على أفبحية القتل فقيل: إنما غير النظم إلى ما ترى لأن القتل أفبح والاعتراض عليه أدخل وأحق فكان الاعتراض جدير بأن يجعل عمدة الكلام" (١).

وهناك موازنة بين قوله (عسراً) وقوله (نكراً) وقوله: فقتله تعقيب لفعل لقياً تأكيداً للمبادرة المفهومة من تقديم الظرف، فكانت المبادرة بقتل الغلام عند لقائه أسرع من المبادرة بخرق السفينة حين ركوبها (٢). ووصف هذا الفعل بأنه نكر، وهو - بضمثين - الذي تتكره العقول وتستقبحه، فهو أشد من الشيء الأمر، لأن هذا فساد حاصل والآخر ذريعة فساد كما تقدم. ووصف النفس بالزكوية لأنها نفس غلام لم يبلغ الحلم فلم يقترب ذنباً فكان زكياً طاهراً. والزكاة: الزيادة في الخير. (٣)

المشهد الخامس: تذكير وعتاب

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) ﴾

أمام هذا الإنكار والتعجب، من موسى عليه السلام، جاءت كلمات الخضر كما ذكرها القرآن الكريم: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) ﴾ [الكهف: ٧٥]، وهو عتاب يليق أن يصدر ممن أوتي رحمة وعلماً، ويناسب توجيهه إلى نبي كريم؛ ذلك أن الخضر عليه السلام أمام ثورة موسى عليه السلام، واتهامه المحكم الذي وجهه إليه، لم يزد على أن ذكره بنصيحته مرة ثالثة، ولم يُناقش تفاصيل الحدث، أو يُنهي الصحبة من طرف واحد، أو يُقدم تفسيرات جزئية؛ فالدرس لم ينته بعد.

(١) تفسير الألويسي = روح المعاني (٨ / ٣١٩).

(٢) انظر التحرير والتنوير (١٥ / ٣٧٧).

(٣) السابق تصرف.

بلاغة الاستفهام، والتأكيد في الآية:

وقد جاءت كلمات الخضر عليه السلام تحمل التأكيد تلو الآخر لعلها تكفكف ولو قليلاً من انفعال الكليم عليه السلام فهو عتاب يبدأ باستفهام " والاستفهام... يثير في النفس التفكير ويدفعها إلى تدبر الأمور حتى تقتنع بتفكيرها الخاص، بأنه ما كان ينبغي أن يقع ما وقع، أو كان الصواب أن يقع ما لم يقع " (١). " والاستفهام للإنكار، بمعنى إنكار الوقوع، مع اللوم وتحقيق القول، والمعنى: لقد قلت لك إنك لن تستطيع معي صبراً. وفيه تأكيد لعدم الاستطاعة بالجملة الاسمية، و" إن " الدالة على التوكيد، و" لن " المؤكدة للنفي، وتتكبير الصبر، أي: أي صبر كان قليلاً أو كثيراً.

من بلاغة الذكر والحذف:

تقرر عند علماء البلاغة القرآنية، أن القرآن الكريم يذكر ما يذكره، " مما يبدو أن السياق يُجيز حذفه، عندما يكون في هذا الذكر تثبيت للمعنى، وتوطيد له في النفس، ويكون في ذكره فضلاً عن ذلك، معان لا تُستفاد إذا حُذف " (٢) كما " يعتمد القرآن على ذكاء قارئه؛ فيحذف من الجُمْل ما يستطيع القارئ أن يُدركه، لأن السياق يستلزمه ويستدعيه " (٣).

على هدي هذه القاعدة البلاغية نتساءل مع الإمام ابن الجوزي - رحمه الله -: "...لمَ ذكر ﴿لَكَ﴾ ها هنا، واختزله من الموضع الذي قبله؟ كما نستمع إلي جوابه كذلك وهو يقول: "... إثباته للتوكيد، واختزاله له لوضوح المعنى، وكلاهما

(١) من بلاغة القرآن - ص ١٢٦. أحمد عبد الله البيلي البدوي (المتوفى: ١٣٨٤هـ). الناشر:

نهضة مصر - القاهرة

(٢) من بلاغة القرآن مرجع سابق - ص ٩٥.

(٣) السابق - ص ١٠١.

معروف عند الفصحاء. تقول العرب: قد قلت لك: اتق الله. وقد قلت لك: يا فلان اتق الله، وأنشد ثعلب^(١):

قد كنت حذرْتُكَ آلَ المصْطَلِقِ ... وقلتُ: يا هذا أُطِئني وَأَنْطَلِقُ

فقوله: يا هذا، توكيد لا يختل الكلام بسقوطه. وسمعت الشيخ أبا محمد الخشاب^(٢) يقول: وقَّره في الأول، فلم يواجهه بكاف الخطاب، فلما خالف في الثاني، واجهه بها " (٣).

ويزداد جواب الإمام ابن الجوزي وضوحاً، وثناءً عندما نضع في حاشيته قول الإمام الطاهر بن عاشور: "...كَانَ جَوَابُ الخَضِرِ هَذَا عَلَى نَسَقِ جَوَابِهِ السَّابِقِ إِلَّا أَنَّهُ زَادَ مَا حُكِيَ فِي الْآيَةِ بِكَلِمَةٍ لَكَ، وَهُوَ تَصْرِيحٌ بِمُتَعَلِّقِ فِعْلِ القَوْلِ. وَإِذْ كَانَ المَقُولُ لَهُ مَعْلُومًا مِنْ مَقَامِ الخِطَابِ كَانَ فِي التَّصْرِيحِ بِمُتَعَلِّقِ فِعْلِ القَوْلِ تَحْقِيقٌ لَوْقُوعِ القَوْلِ وَتَثْبِيتٌ لَهُ وَتَقْوِيَةٌ، وَالدَّاعِي لِذَلِكَ أَنَّهُ أَهْمَلَ العَمَلَ بِهِ.

(١) أبو العباس ثعلب الشيباني مولاهم النحوي اللغوي: إمام الكوفيين في النحو واللغة والثقة والديانة، ولد سنة مائتين، ومات سنة إحدى وتسعين ومائتين في خلافة المكتفي بن المعتض وقد بلغ تسعين سنة وأشهرًا. انظر معجم الأديباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٢/٥٣٦).

(٢) عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد، أبو محمد الخشاب أحد شيوخ ابن الجوزي وقال عنه: " قرأ القرآن وسمع الحديث الكثير وقرأ منه ما لا يحصى وقرأ النحو واللغة وانتهى علمها إليه ومرض في شعبان هذه السنة نحو عشرين يوماً فدخلت عليه في مرضه وقد يئس من نفسه فقال لي عند الله احتسبت نفسي." انظر المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (١٨/١٩٨).

(٣) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٣/١٠٠). وانظر مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للفخر الرازي (٢١/٤٨٧).

وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ لَكَ لَامُ التَّبْلِيغِ، وَهِيَ الَّتِي تَدْخُلُ عَلَى اسْمٍ أَوْ ضَمِيرِ السَّمْعِ لِقَوْلٍ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ، نَحْوُ: قُلْتُ لَهُ، وَأَذْنْتُ لَهُ، وَفَسَّرْتُ لَهُ وَذَلِكَ عِنْدَ مَا يَكُونُ الْمَقُولُ لَهُ الْكَلَامُ مَعْلُومًا مِنَ السِّيَاقِ فَيَكُونُ ذِكْرُ اللَّامِ لِرِزَادَةِ تَقْوِيِ الْكَلَامِ وَتَبْلِيغِهِ إِلَى السَّمْعِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ لَامُ التَّبْلِيغِ. أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّامَ لَمْ يَحْتَجْ لِدِكْرِهِ فِي جَوَابِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، فَكَانَ التَّقْرِيرُ وَالْإِنْكَارُ مَعَ ذِكْرِ لَامِ تَعْدِيَةً الْقَوْلِ أَقْوَى وَأَشَدَّ" (١).

ويقول الدكتور محمد أبو موسى: " قال في آية السفينة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، ثم قال في آية قتل الغلام: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٥) ﴿[الكهف: ٧٥]، فزاد قيدًا للمسدد في الثانية؛ لتربية الفائدة أعني لتأكيد اللوم في الثانية؛ لأن المخالفة الثانية أحوج إلى مزيد من اللوم بتقريره وتأكيده. ومما يأتي على هذه الطريقة قولهم: رأيتُه بعيني، ووطنته بقدمي، وقبضته بيدي، وذقته بفي، وقد يظن من لا معرفة له بأسرار الكلام، وخصائص التراكيب أن هذه القيود فضلات ثقيلة في الكلام، إذ الرؤية لا تكون إلا بالعين، والوطء لا يكون إلا بالقدم، والقبض لا يكون إلا باليد، والذوق لا يكون إلا بالفم، ولكن المعنى هنا بالقيود أكبر منه بدونه، فليس المعنى على أنه رآه، ووطنه وذاقه فحسب، وإنما يضاف إلى ذلك قدر كبير من التصوير والتقرير، لذلك لا يقولون هذا إلا في شيء يعظم مثاله، ويعز الوصول إليه، فيؤكد القول فيه دلالة على نبيله والحصول عليه، وقريب من هذا ما يقال في الحروف التي يقولون: إنها زائدة ويريدون أن أصل المعنى يبقى مع إسقاطها، كما يبقى أصل المعنى في قولك: رأيتُه من غير أن تضيف بعيني" (٢).

(١) التحرير والتوير (١٦ / ٥).

(٢) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني للدكتور محمد أبي موسى (ص:

٣٢٠). ط مكتبة وهبة.

نظائر قرآنية:

قلت: وبالرجوع إلى نظائر هذا الأسلوب في القرآن الكريم [التصريحُ بِمُتَعَلِّقِ فِعْلِ الْقَوْلِ مع أنه معروف من السياق]، نجد أنه يأتي في مفاصل العتاب، وعند ظهور الحقيقة، وتأكيدا لدى المُخَاطَب؛ بحيث لا يجد له مخرجاً - إن كان من المنصفين - إلا الاعتراف بما خُوطب به، والتسليم للقائل فيما أخبر عنه، أو نصح به، ونبه عليه سابقاً، ولمن شاء أن يتأمل، فليقرأ هذه الآيات:

١- ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (٣٣) [البقرة: ٣٣].

٢- ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢٢) [الأعراف: ٢٢].

٣- ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٩٦) [يوسف: ٩٦].

٤- ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (٢٨) [القلم: ٢٨].

ففي هذه المواضع الأربعة، تم التصريح بمتعلق فعل القول، مع كونه معروفاً، لا لیس فيه، وقد أعقبا تسليم المُخَاطَب، وإقراره، سواء في ذلك الملائكة، أو آدم وزوجه، أو أبناء يعقوب، أو أصحاب الجنة، تماماً كما سلم موسى، وأقر للخضر - عليهما السلام - وسبحان من هذا كلامه.

وصفوة القول: أن في هذه الآية الكريمة: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (٧٥) [الكهف: ٧٥] إطناب؛ حيث صرح بما يمكن الاستغناء عنه، وكان هذا التصريح لفائدة، ويناسب مقتضى الحال، ويتضح ذلك عندما نتتبع

عبارات الخضر من بدء القصة، فقد قال له أولاً: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، وقال له ثانياً: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، وعبارة الخضر في هاتين المرتين مساوية لا إيجاز فيها ولا إطناب، فلما اعترض موسى عليه السلام على الخضر لما قتل الغلام، قال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾. فَأَطْنَبَ إذْ أَضَافَ عِبْرَةَ ﴿لَكَ﴾ مع أن المخاطب معروف وليس هناك أدنى احتمال لأن يتوهم خلافه و"الداعي البلاغي لهذا الإطناب هو أَنَّ مُوسَى عليه السلام تَصَرَّفَ تَصَرَّفَ من لم يُدْرِكْ أَنَّ الْخِطَابَ قَدْ كَانَ مُوجَّهًا لَهُ فِيمَا سَبَقَ، فاعترض، فاقتضى حاله أَنْ يَقُولَ لَهُ الخضر: إِنِّي كُنْتُ وَجَّهْتُ الْخِطَابَ لَكَ بِأَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا" (١).

والملاحظ بوجه عام أن المحادثة التي جرت بين نبي الله موسى والخضر اتسمت "بغيا ب كلي للتخاطب بالأسماء، في حين يتكرر كاف الخطاب من الطرفين نحو عشر مرات وهي علامة على تنزيل المتخاطبين أحدهما الآخر المنزلة نفسها ومن أمثلة استعمال كاف الخطاب قول سيدنا موسى - عليه السلام - للخضر: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا (٦٦)﴾ [الكهف: ٦٦، ٦٧] ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩)﴾ [الكهف: ٦٩، ٧٠] ومن جهة الخضر نجد قوله لسيدنا موسى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨)﴾ [الكهف: ٦٧، ٦٨] ﴿قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ نَكَرًا (٧٠)﴾ [الكهف: ٧٠] ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ

(١) البلاغة العربية ٧/٢ لعبد الرحمن بن حسن حَبَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ)

دار القلم، دمشق، دار الشامية، بيروت. الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾
[الكهف: ٨٢] (١)

من ملامح التربية:

من إنصاف الخضر - عليه السلام - أنه قيد نفي الصبر عن موسى عليه السلام بكلمة " معي " في كافة ما واجهه به من خطاب وعتاب:

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٧]

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٢]

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٥]

فلم ينف عنه مطلق الصبر. وهذا من محاسن الاحتراس في الكلام.

ومن الملامح التربوية في ذلك أن الإنسان قد يصبر على نوع من العلوم مالا يصبر على غيره، وأن هناك فروقاً فردية ينبغي مراعاتها لدى الدارسين. ونتعلم منه الإنصاف في النقد وعدم التعميم إلا فيما يصح التعميم فيه.

المشهد السادس: حياءً وإنصاف

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ (٧٦)

هذه الآية الكريمة تشير إلى ما جُبل عليه موسى ﷺ من حياءٍ، وإنصافٍ، وتواضعٍ، وحرصٍ على طلب العلم؛ ومراعاة لشعور الآخرين؛ فهذا هو في حياءٍ بالغٍ، وأدبٍ جمٍ، وإنصافٍ عزيزٍ، يطلب من صاحبه فرصة أخيرة، والملاحظ أنه

(١) حجاج موسى عليه السلام في النص القرآني - دراسة تداولية - كهينة زמוש ص ٥٧ رسالة ماجستير جامعة مولود معمري تيزي وزو كلية الآداب واللغات - الجزائر. طبع المؤلف بدون تاريخ.

استخدم نفس تعبير الخضر عليه السلام الذي سمعه منه أول اللقاء ﴿... فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ [الكهف: ٧٠]، وهنا يقول موسى عليه السلام: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا...﴾، وكان موسى عليه السلام يُجدد له العهد، والشرط، بذات الألفاظ؛ ترضية واعتذاراً، وأنه لا يزال يتذكر الشرط لا بمعناه فقط، ولكن بلفظه أيضاً.

قال الإمام الفخر الرازي في تفسير قوله: ﴿...قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ "المراد منه أنه يمدحه بهذه الطريقة من حيث احتمله مرتين أولاً وثانياً، مع قرب المدة" (١).

ولم يتطرق موسى عليه السلام لما التزمه الخضر على نفسه في قوله: ﴿... حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ نِكْرًا (٧٠)﴾ [الكهف: ٧٠]؛ لأن المقام - كما سبق بيانه - مقام ترضية واعتذار للخضر، فكان من المناسب، ومن فطنة موسى عليه السلام أن يكتفي، بما يخصه هو، من الشرط، وهو عدم السؤال، ولا يتطرق إلى ما يلزم الخضر فيه، بل وأضاف هذه المرة، شرطاً جديداً على نفسه، يصح أن يُوصف بأنه شرط جزائي، لم يكونا قد اتفقا عليه عندما بدأت الرحلة، هذا الشرط يُطمئن فيه موسى عليه السلام صاحبه، بأنه يُمكنه إنهاء الرحلة، وإعلان الفراق من طرف واحد؛ لذلك قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بياناً لحقيقة الفرق بين اعتراضات الكليم عليه السلام الثلاثة: (...كَانَتْ الْأُولَىٰ نِسْيَانًا، وَالْوَسْطَىٰ شَرْطًا، وَالثَّالِثَةُ عَمْدًا...).(٢).

والفاء في قوله: ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ واقعة في جواب الشرط، والأصل في جواب الشرط أن يخلو من الفاء، لكن قد تقع لأسباب منها أن يكون الفعل مبدوءاً بالطلب، وقوله: (فلا) للنهي، والنهي نوع من الطلب.

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١ / ٤٨٧).

(٢) صحيح البخاري كتاب: الشروط - باب: الشُّرُوطِ مَعَ النَّاسِ بِالْقَوْلِ - (٣ / ١٩٢) - حديث

ومن أدب موسى عليه السلام أنه قال عند طلب الصحبة: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ وقال عند احتمال الفراق: ﴿ فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾، وفي كل منهما توكير من موسى للخضر، فلم يقل فلن أتبعك أو سأفارقك؛ لأن ذلك قد يوحي بأن موسى عليه السلام سيتترك صحبته كارهاً لها أو راغباً عنها، ولكن قال: ﴿ فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ وفيه معنى التفويض والتسليم؛ كأنه يقول له: أنت صاحب القرار في الفراق لا أنا؛ فما زلت حريصاً على صحبتك. بينما لو قال عند اللقاء، هل أصاحبك، لتعارض لفظ المصاحبة مع المهمة التي جاء من أجلها، وهي التعلُّم؛ فمن جعل نفسه نداً لمعلمه، لن ينتفع بعلمه، وهذا لعمر الحق أدب خليق بالأنبياء.

الاستعارة في قوله ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾:

قال الإمام الطاهر بن عاشور: "مَعْنَى ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ قَدْ وَصَلْتَ مِنْ جِهَتِي إِلَى الْعُذْرِ. فَاسْتُعِيرَ بَلَغْتَ لِمَعْنَى (تَحَمَّ وَتَعَيَّنَ) لَوْجُودِ أَسْبَابِهِ بِتَشْبِيهِ الْعُذْرِ فِي قَطْعِ الصُّحْبَةِ بِمَكَانٍ يَنْتَهِي إِلَيْهِ السَّائِرُ عَلَى طَرِيقَةِ الْمَكْنِيَّةِ (١). وَأَثْبَتَ لَهُ الْبُلُوغَ تَخْيِيلًا، أَوْ اسْتَعَارَ الْبُلُوغَ لِتَعَيُّنِ حُصُولِ الشَّيْءِ بَعْدَ الْمَاطَلَةِ " (٢).

(١) الاستعارة المكنية هي: " ما حذف فيها المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، نحو: ﴿ وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾، شبه الذل بطائر بجامع الخضوع واستعير الطائر للذل، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الجناح، على طريق الاستعارة بالكناية، وإثبات الجناح للذل استعارة تخيلية، وهي قرينة المكنية، ويجعل الطائر مستعاراً للمخاطب "أي: للولد في معاملة والديه" والأصل واخض لهما جناحك ذلاً". نظر علوم البلاغة البيان، المعاني، البديع (ص: ٢٧١). لأحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)

(٢) التحرير والتنوير (٦/١٦).

مغزى إيثار كلمة ﴿لُدْنِي﴾ على كلمة (عندي):

(اللدن) اللين من كل شيء من عود، أو حبل، أو خلق، وامرأة لدنة، ريا الشباب ناعمة، وتلدن في الأمر، تلبث وتمكث، ولم يثر ولم ينبعث عليه، والتلدن وتمكث. فاللدونة الليونة واللدن اللين. وقد ورد كلمة (لدن) الظرفية في القرآن الكريم سبع عشر مرة، كلها في الرحمة، والحنان، والخير، واللين، ونحوه، وهو استعمال قريب لمعنى الليونة، وأحيانا لمعنى التلبث...

قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) ﴾ [آل عمران: ٨].

وقال: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وقال: ﴿ إِذْ أَوْى الْفَتِيَّةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) ﴾ [الكهف: ١٠]، وقال: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف: ٦٥]، وقال: ﴿ وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا ﴾ [مريم: ١٣].

وقال موسى للرجل الصالح: ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) ﴾ [الكهف: ٧٦]، ولم يأت بـ(عند) وهي هنا كما تفيد معنى الظرفية، تفيد معنى التمكث والتلبث، وليس في (عند) هذا المعنى فكأنه قال: قد بلغت العذر في تمكثك وصبرك عليّ، وتلبثك على إلحاحي في السؤال وهو استعمال رفيع. وقد تقول: ألم يرد قوله تعالى: ﴿ قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ ﴾ [الكهف: ٢]، وهذا ليس في اللين والرحمة؟ فأقول: إن هذا هو الموطن الوحيد الذي اقترن به البأس فيه والشدة بلدن، ومع ذلك هو في الرحمة، والنص يوضح ذلك، قال تعالى: ﴿ {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قِيمًا

لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا (٣) ﴿ [الكهف: ١ - ٣]، فهذا الكلام هو في القرآن الكريم الذي هو خير، ورحمة، منذرًا ومبشرًا، والخير يكون فيهما جميعًا.

و لما كانت (لدى) أخص من (عند) لكونها أقرب مكانا منها، كانت أبلغ من (عند) لأنها مبدأ المكان والزمان، ولم تستعمل (لدى) في القرآن الكريم، إلا مع الله نحو قوله: ﴿ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]، ﴿ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل: ٦]، ﴿ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٦٧]، ﴿ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ [القصص: ٥٧]. ﴿ من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ [الإسراء: ٨٠]، إلا في موطن واحد هو قوله: ﴿ قد بلغت من لدني عذرا ﴾ [الكهف: ٧٦].

فهي أبلغ من (عند)؛ لأنها ألصق، وقد استعملت في القرآن الكريم في خصوصيات الألفاظ، والتعليم والرحمة الإلهية، وبموازنة ذلك بين استعمالها واستعمال (عند) يتضح الأمر^(١).

قال الإمام الفخر الرازي قال موسى: " إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني مع العلم بشدة حرصه على مصاحبتك، وهذا كلام نادم شديد الندامة "^(٢).

من القراءات المتواترة في الآية وتوجيهها البلاغي:

وردت في كلمة ﴿ لَدُنِّي ﴾ قراءات متواترة تتعاضد في إيصال المعنى الذي جاشت به نفس موسى ﷺ:

(١) انظر معاني النحو (٢ / ٢١٨). د. فاضل صالح السامرائي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الأردن الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م بتصرف واختصار.
(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١ / ٤٨٧).

قرأ نافع وأبو جعفر (لُدْنِي) بضم الدال وتخفيف النون. وهذه القراءة تُفيد إعدار موسى ﷺ للخضر إن ترك مصاحبته، كما تُفيد ندمه على سؤاله.

وقرأ شعبة بوجهين:

الأول: إسكان الدال مع الإشمام مع تخفيف النون.

الثاني: اختلاس ضمة الدال مع تخفيف النون.

وهذه القراءة بوجهيها تُفيد إعدار موسى للخضر مع استحيائه منه على ما بدر سابقاً؛ لأن خفاء الصوت بالحركة أو اختلاسها يُوجي بضعف الصوت مما يوجي بالحياء والندم.

وقرأ الباقون (لُدْنِي) بضم الدال وتشديد النون. (١)

وهذه القراءة أفادت مزيداً من الإعدار للخضر من قبل موسى ﷺ والندم

على ما بدر منه من سؤاله، مع مدح لصبر الخضر عليه (٢).

من معالم التربية:

إذا كانت هذه الآية ثناء وعذر مقدم من موسى للخضر إن اختار الخضر فراقه، فهي كلمة تقابل كلمة الخضر في عذره مقدماً لموسى عن عدم صبره حيث قال له في أول اللقاء: «... وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا» [الكهف: ٦٨]. فكلُّ منهما أبرز عذر الآخر قبل أن يقع ما يوجب الاعتذار؛ وهذا يعلمنا الموضوعية، والنظرة الشمولية، عندما نحكم على تصرفات الآخرين؛ لأن النظرة

(١) انظر النشر في القراءات العشر للإمام بن الجزري ٢/٢٣٥.

(٢) انظر تفسير القرآن بالقراءات القرآنية العشر ٦ / ٢١٠. آمال خميس حماد ومجموعة باحثين

ط روايي القدس بدون تاريخ.

الجزئية الضيقة، يتبعها فساد الرأي، واعوجاج الحكم على الآخرين، أما النظرة الكلية الشاملة للأحداث، والأشخاص، قد تقربنا من الرأي الرشيد، وتجعلنا أقرب لتبين أعداء الآخرين.

المشهد السابع: بناء الجدار

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧)﴾ [الكهف: ٧٧].

الفاء عاطفة، وفي الآية إيجاز بالحذف فقد حُذِفَ ما يُفهم من السياق، والتقدير قَبِلَ الخضر عليه السلام عذر موسى عليه السلام، وشرطه الجديد، وانطلقا مستكملين الرحلة، و﴿حَتَّىٰ﴾ غاية للانطلاق.

ومن بلاغة التكرار: تكرر الفعل ﴿فَانْطَلَقَا﴾ في هذه القصة ثلاث مرات، وهو فعل يُصور الحدث بأشخاصه، وهم في رحلة ذات أهمية خاصة يلحظ كلٌ منهم الآخر، ويُراقب أفعاله، ولا يدري متى يحين الفراق، وأي حدث جديد يا ترى سيكون وراء ذلك الفراق !! وهذا الفعل الذي تكرر ثلاث مرات في قصتنا هذه، نجده قليل الورد في القرآن الكريم، ويُستعمل غالباً في السعي إلى خطير الأمور، وعظيمها؛ فما هو القرآن الكريم يصور لنا خروج أصحاب البستان البخلاء ليلاً مستخدماً هذا الفعل: ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخَافَتُونَ (٢٣)﴾ [القلم: ٢٣] كما يخاطب به أصحاب الجحيم وهم ذاهبون إلى نار الله الموقدة: ﴿انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩)﴾ [المرسلات: ٣٠، ٢٩].

ومن البلاغة التصريح بكلمة ﴿أَهْلَ﴾ وتكرارها، مع أنه قد يكفي أن يقال: (أتيا قرية)، وقد ورد هذا الأسلوب في القرآن الكريم كما قص عن إخوة يوسف عليهم السلام قولهم لأبيهم: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا

فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴿ [يوسف: ٨٢]، والمعنى أهل القرية وأصحاب العير.

وقد ذكر الأهل في هذه الآية؛ لأن لهم شأنًا في هذا اللقاء وهو اللؤم، وفساد النفس كما يبدو مما يأتي: «اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا»، أي فور اللقاء معهم طلبوا الطعام، فالسين والتاء للطلب، طلبا الطعام، لأنهما كانا في جوع شديد، وألم القرى الذين لا يقرون الضيف، ولا يطعمون ابن السبيل الذي يكون في مكان قد انقطع عنه زاده، وإن كان غنيًا في مكانه، فأجابوهما عن الاستطعام بالامتناع؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا﴾ والتضيُّف طلب الضيافة بشدة الحاجة، وردها بشدة مع ظهور الحاجة، وهل يكون ظهوراً أشد من الاستطعام، وكان تكرار ذكر أهلها؛ للدلالة على لؤم القوم، وفساد المروءة" (١).

وفي الآية دليل على إباحة طلب الطعام لعابر السبيل؛ لأنه شرع من قبلنا، وحكاه القرآن ولم يرد ما ينسخه. (٢) قال الفخر الرازي: " إقدام الجائع على الاستطعام أمر مباح في كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند خوف الضرر الشديد" (٣).

وصفوة القول أن تكرار كلمة " (أهلها) للتأكيد من باب إقامة الظاهر مقام المضمر... أو للتقصي ليشمل الاستطعام والامتناع من الإكرام جميع أهلها " (٤).

(١) زهرة التفاسير (٩ / ٤٥٦٦، ٤٥٦٥).

(٢) انظر التحرير والتنوير (٧ / ١٦).

(٣) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١ / ٤٨٧).

(٤) إعراب القرآن وبيانه (٦ / ٩) بتصرف يسير.

لماذا لم يقل فأبوا أن يطعموهما جرياً على ما سبق من قوله تعالى:
﴿سْتَطَعَمَا أَهْلَهَا﴾ بل قال: ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا﴾ ؟

عبر باستطعما دون استضافا للإشارة إلى أن جُل قصدهما الطعام دون الميل بهما إلى منزل، وإيوائهما إلى محل. وذكر بعضهم أن في ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا﴾ من التشنيع ما ليس في أبوا أن يطعموهما؛ لأن الكريم قد يرد السائل المستطعم ولا يعاب كما إذا رد غريباً استضافه بل لا يكاد يرد الضيف إلا لئيم، ومن أعظم هجاء العرب فلان يطرد الضيف، وعن قتادة: شر القرى التي لا يضاف فيها الضيف، ولا يعرف لابن السبيل حقه (١).

من بلاغة تصوير بخل أهل تلك القرية:

يثار التعبير بالفعل ﴿...فَأَبَوْا...﴾ عن نظائره مثل (امتنعوا أو بخيلوا...)

يقول الإمام الراغب الأصفهاني - رحمه الله - " الإباء: شدة الامتناع، فكل إباء امتناع، وليس كل امتناع إباءاً " (٢). ف " المعنى المحوري لاستعمالات هذا التركيب (أبى) هو: الامتناع عن الشيء امتناعاً تاماً كراهةً له، أو إحساساً بالاستغناء عنه، وعدم الحاجة إليه " (٣).

وقد يكون الإباء عن خشية وشفقة، كما يكون عن كبر وغرور، مثال الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. ومثال الثاني قوله ﷺ عن إبليس لعنه الله:

(١) انظر تفسير الألويسي = روح المعاني (٨ / ٣٢٩).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٨).

(٣) انظر المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ الدكتور محمد حسن حسن جبل

٥٧/١ مكتبة الآداب - القاهرة - ط. الثانية ٢٠١٢م

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾ [البقرة: ٣٤]، وقد استخدم القرآن الكريم هذا الفعل ثلاث مرات فيما يخص امتناع الشيطان الرجيم عن السجود لآدم عليه السلام.

و مما سبق يمكن القول، إن القرآن الكريم آثر التعبير بالفعل ﴿...فَأَبَوْا...﴾، لما يدل عليه هذا الفعل من شدة البخل، فقد يكون الإنسان بخيلاً، ولكنه يخجل من بخله، ويتحايل على ستر تلك النقيصة في نفسه، ولكن يبدو أن بخل أهل تلك القرية، صار طبعاً، لا يخجلون من المجاهرة به، فصار وباءً عاماً فيهم، فشحوا شحاً جماعياً، عن سبق إصرار وترصد، وحسبك بقرية تنظر في وجه رجلين قال الله في أحدهما: ﴿...وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾ [طه: ٣٩]، وقال في الآخر ﴿...عَبَادًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، ثم لا تخشع القلوب لرؤيتهما ولا تسأل العقول عن سر نورهما وبهاء سمتهما، وحنان نظراتهما، وصدق لهجتهم، فيتهافتون على حبهما ويتقاتلون على خدمتهما. حسبك من قرية بخلت على من هذا شأنهم بكسرة خبز وقطعة جبن، والله في خلقه شئون، اللهم إنا نعوذ بك من قسوة القلب، وانطماس البصيرة، وذهاب الفراسة.

المغزى البلاغي في إيثار كلمة ﴿جِدَارًا﴾:

لم ترد هذه الكلمة في القرآن الكريم كله مفردة إلا في هذا الموضع، وكذلك صيغة الجمع لم ترد هي الأخرى إلا مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى عن اليهود: ﴿...لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مَّحْصَنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤].

وعن معنى الجدار يقول الراغب الأصفهاني: " الجِدَارُ: الحائط، إلا أنَّ الحائط يُقالُ اعتباراً بالإحاطة بالمكان، والجدار يقالُ اعتباراً بالنتوء والارتفاع ". (١)

وقد يُستشف من عبارة صاحب المفردات - رحمه الله - أن إيثار التعبير بكلمة ﴿جِدَارًا﴾ دون كلمة حائط؛ لأن تصوير العلو والارتفاع هو المقصد الأهم هنا؛ وذلك يتناسب مع كونه يريد أن ينقض، والانقضاض إنما يكون من علو، وكلما كان العلو أكثر، كان تخيل صورة التهيؤ للانقضاض أوقع في النفس، وأشد تأثيراً، وكأن القارئ قد شخص ببصره إلى أعلى يُراقب ذلك الجدار المرتفع المتشقق المائل الموشك على التكرس، والارتماء على الأرض، وقد أنهكه الوقوف على غير استقامة !!!

كما أن الجدار فيه معنى الستر، والحماية من الأخطار، وهذا المعنى يتسق تماماً، مع وظيفة الجدار في القصة إنه يحمي حق يتيمين، ويحفظ وديعة أب صالح لأبنائه الضعفاء؛ حتى لا يضيعوا على مائدة أهل تلك القرية اللئام.

المغزى البلاغي في إيثار كلمة ﴿يَنْقُضُ﴾ على نظائرها مثل (يسقط):

هذه الكلمة أيضاً من فرائد الكلمات القرآنية؛ فليس لها وجود إلا في هذه الآية، وقد فسر إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني هذه الكلمة بقوله: " و(الانقضاض): سقوط في انكسار. "(٢)" والمعنى المحوري لمادة (قضض - قضض): اختراقٌ صُلْبٍ أو كسره تفتيتاً أو نحوه "(٣).

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ١٨٩).

(٢) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الحكمة (٣/ ١١٥٧).

(٣) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن ١٨٣٩/٤. مرجع سابق

وكان إيثار هذه الكلمة لإفادة أن الجدار - والأصل فيه الصلابة والتماسك - قد بلغ درجة من التفكك والوهن وضعف التماسك بحيث إنه لو سقط لنزل متكسراً مقطعاً قبل أن يصل إلي الأرض.

الاستعارة في الآية الكريمة:

وفي هذه الآية الكريمة يُجسد القرآن الكريم المعنى، ويهب للجماد العقل والحياة، فيزداد المعنى في النفوس تصويراً وتمثيلاً، فالجدار يريد أن ينقض، وكأنه كائن حي طال به الزمن، وبلغ من العمر أرذله، فهو يُؤثر الراحة بعد أن أضناه القيام، يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله-: "إِسْنَادُ الْإِرَادَةِ هَاهُنَا إِلَى الْجِدَارِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ، فَإِنَّ الْإِرَادَةَ فِي الْمُحَدَّثَاتِ بِمَعْنَى الْمَيْلِ. وَالْإِنْقِضَاضُ هُوَ: السُّقُوطُ" (١).

وقال الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية: "... فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الْمَجَازِ فِي الْقُرْآنِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ. وَجَمِيعُ الْأَفْعَالِ الَّتِي حَقَّهَا أَنْ تَكُونَ لِلْحَيِّ النَّاطِقِ مَتَى أُسْنِدَتْ إِلَى جِمَادٍ أَوْ بِهِيمَةٍ فَإِنَّمَا هِيَ اسْتِعَارَةٌ، أَيْ لَوْ كَانَ مَكَانَهُمَا إِنْسَانٌ لَكَانَ مِمْتَثِلًا لِذَلِكَ الْفِعْلِ، وَهَذَا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ وَأَشْعَارِهَا كَثِيرٌ... " (٢)، فـ" استعيرت الإرادة للمشارفة؛ لأن الإرادة مختصة بالأحياء فشبه مشارفة الجدار للانقضاض بالإرادة بجامع الميلان فاستعيرت الإرادة للمشارفة استعارة تبعية تصريحية" (٣).

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (٥/ ١٨٤).

(٢) تفسير القرطبي (١١/ ٢٥).

(٣) حاشية القونوي على تفسير البضاوي ومعه حاشية ابن التمجيد ١٤٠/١٢ ط دار الكتب العلمية. بيروت. الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م "

قال صاحب التحرير والتوير: " وَمَعْنَى يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ أَشْرَفَ عَلَى النَّاقِضِ، أَيِ السُّقُوطِ، أَيِ يَكَادُ يَسْقُطُ، وَذَلِكَ بِأَنْ مَالَ، فَعَبَّرَ عَنْ إِشْرَافِهِ عَلَى النَّاقِضِ بِإِرَادَةِ النَّاقِضِ عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِعَارَةِ الْمُصْرَحَةِ التَّبَعِيَّةِ بِتَشْبِيهِ قُرْبِ انْقِضَائِهِ بِإِرَادَةِ مَنْ يَعْقِلُ فِعْلَ شَيْءٍ فَهُوَ يُوشِكُ أَنْ يَفْعَلَهُ حَيْثُ أَرَادَهُ، لِأَنَّ الْإِرَادَةَ طَلَبَ النَّفْسِ حُصُولَ شَيْءٍ وَمَيْلُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ " (١).

وجاء في محاسن التأويل: "...والإرادة مستعارة للمدانة والمشاركة. لما فيها من الميل. استعارة تصريحية (٢) أو مكنية (١) وتخيلية (٢)، أو هي مجاز لغوي مرسل (٣) بعلاقة سبب الإرادة، لقرب الوقوع" (٤).

=والاستعارة التبعية في اصطلاح البيانين هي: ما كان اللفظ المستعار فيها واحداً من الفصائل الثلاث الآتية:

الأفعال: ماضية كانت أو مضارعة أو أمراً.
الصفات المشتقة: مثل اسمى الفاعل والمفعول.
الحروف؛ مثل في وعلى واللام.

وهي عكس الاستعارة الأصلية، وكتاهما تصريحيتان وهما قسمان للاستعارة التصريحية وقد عرف الإمام السكاكي الاستعارة التبعية فقال: " ما تقع في غير أسماء الأجناس كأفعال والصفات المشتقة، والحروف ". انظر: مفتاح البلاغة للإمام السكاكي (١٧٩) - والموسوعة القرآنية المتخصصة (٥٣٨)

(١) التحرير والتوير (١٦ / ٨).

(٢) التصريح لغة: الإبانة والإظهار، ضد الغموض والإخفاء أما في الاصطلاح البلاغي فهي..

ما صرح فيها بلفظ المشبه به دون المشبه أو هي كما قال السكاكي: «أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به». وأساس هذا التقسيم للاستعارة إلى تصريحية وغيرها هو قولهم: «الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه» وطرفا التشبيه هما: المشبه والمشبه به. وعلى هذا قالوا: إن الاستعارة التصريحية هي ما كان المذكور فيها من طرفي التشبيه هو المشبه به، والمحذوف هو المشبه، وهذا

وعن معنى قوله تعالى ﴿...فَأَقَامَهُ...﴾ يقول شيخ المفسرين الطبري: " عدل ميله حتى عاد مستويا...وجائز أن يكون كان ذلك بإصلاح بعد هدم، وجائز أن يكون كان برفع منه له بيده، فاستوى بقدرة الله، وزال عنه ميّله بلطفه، ولا دلالة من كتاب الله ولا خبر للعذر قاطع بأي ذلك كان... " (٥).

=موضع إجماع عند البلاغيين. فهي عندهم «أن تعتمد نفس التشبيه، وهو أن يشترك شيئان في وصف، وأحدهما أنقص من الآخر، فيعطى الناقص اسم الزائد، مبالغة في تحقيق ذلك الوصف كقولك: رأيت أسدا، وأنت تعنى رجلا شجاعا، وغنت لنا ظبية، وأنت تريد امرأة». انظر الموسوعة القرآنية المتخصصة (ص ٥٣٤).

(١) مادة كنى يكنى تدور لغة حول الخفاء والغموض. والاستعارة المكنية- وتسمى الاستعارة بالكناية، والاستعارة المكنى عنها- هي قسيمة الاستعارة التصريحية، التي يصرح فيها بذكر المشبه به، مع حذف المشبه؛ لأن الاستعارة- عموما- تشبيه حذف منه ثلاثة أركان. وجه الشبه، ويسمى في الاستعارة «الجامع» وأداة التشبيه، وهذان الحذفان لازمان في كل استعارة ثم بعد حذفهما إما أن يحذف المشبه، ويذكر الشبه به فتكون الاستعارة تصريحية. وإما أن يحذف المشبه به، ويذكر المشبه فتكون الاستعارة مكنية. ويشترط فيها أن يكون في الكلام ما يدل دلالة قوية على المشبه به المحذوف؛ لأنه عمدة في كل استعارة. الموسوعة القرآنية المتخصصة (١/ ٥٤٩)

(٢) قرينة الاستعارة المكنية لفظية دائما لأنها تكمن في إثبات أحد خواص المشبه به للمشبه، وهذا ما سماه الخطيب والبلاغيون بالاستعارة التخيلية. انظر السابق (١/ ٥٥٠).

(٣) الإرسال في اللغة الإطلاق وترك التقييد والمجاز المرسل قسم قائم برأسه من المجاز اللغوي والقسم الآخر هو الاستعارة. والفرق بينهما أن الاستعارة مجاز لغوي علاقته المشابهة. أما المجاز المرسل فهو مجاز لغوي علاقته ليست المشابهة بل له علاقات أخرى كالكلية والجزئية. وسمى مرسلا لأنه لم يقيد بعلاقة واحدة كما هو الشأن في الاستعارة، بل تتوارد عليه علاقات كثيرة تتعدى العشر علاقات. انظر السابق (١/ ٥٢٩)

(٤) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٧/ ٥١).

(٥) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاکر (١٨/ ٨١).

جدار الغلامين، وسدّ ذو القرنين .. إجمال هنا..وتفصيل هناك !!

وقد يكون من المفيد هنا أن نُقارن بين هذا الإبهام، والإجمال لكيفية إقامة الخضر للجدار، وبين التفصيل الدقيق لبناء ذي القرنين للسد، وذلك قد يُنبئ عن أن طريقة إقامة الخضر للجدار كانت بواحدٍ من تلك الطرق المتعارف عليها عند أهل ذلك الزمان، ولم يكن فيها شيء من خوارق العادات، أو دقيق الصناعات، وإلا لذكره القرآن الكريم، كما هو الحال مع سد ذي القرنين، وأن إقامة الجدار، كانت لأجل غاية واحدة، وهي أن يبقى كنز الغلامين مخفياً عن أعين الطامعين، وأما سد ذي القرنين، فظاهر أن القرآن أراد أن يُعلمنا طريقة إقامته، كما أعلمنا بالغرض المقصود منه، وهو حماية الضعفاء من هجمات الظالمين المفسدين (يأجوج ومأجوج).

وقد لخص العلامة الألوسي أقوال العلماء في مسألة إقامة الخضر للجدار فقال: "...﴿فَأَقَامَهُ﴾ مسحه بيده فقام كما روي عن ابن عباس وابن جبير، وقال القرطبي إنه هو الصحيح وهو أشبه بأحوال الأنبياء - عليهم السلام - واعترض بأنه غير ملائم لما بعد إذ لا يستحق بمثله الأجر، ورد بأن عدم استحقاق الأجر مع حصول الغرض غير مسلم ولا يضره سهولته على الفاعل، وقيل: أقامه بعمود عمده به، وقال مقاتل: سواه بالشيد، وقيل هدمه وقعد بينيه" (١).

وأري - والعلم عند الله سبحانه وتعالى - أن اقتراح موسى عليه السلام على الخضر، أن يأخذ أجراً، على إقامته ذلك الجدار، يشير إلى أن طريقة تلك الإقامة، كانت من باب عالم الأسباب، لا من باب خوارق العادات؛ فإن الرُّسُلَ أجل وأكرم، وتعظيمهم لله أعلى وأسمى، من أن يخطر على بالهم، عرضٌ دنيوي، أجراً على آيةٍ

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني (٨ / ٣٣٠).

خارقة، هي محض فضل الله ورحمته؛ ولو من باب السؤال للعلم، بل الأقرب أن إقامة الجدار، لو كانت بخارق من خوارق العادة، لسمعنا تسبيح موسى عليه السلام، وتكبيره، وتهليله لا حضه للخضر على طلب الأجر. ولو كانت إقامة الجدار من باب خوارق العادات لعلم موسى - عليه السلام - علم يقين أن إقامته بأمر الله وإلا لما أجرى هذا الخارق للعادة على يدي الخضر وبالتالي تزول الدهشة في نفسه فيمسك عن السؤال.

هذا اجتهاد قد خطر لي فإن يكن صواباً فالحمد لله، وإن يكن غير ذلك فأستغفر الله.

عرض غايته معرفة الحكمة

﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الكهف: ٧٧]

نكاد نحس لصوت موسى عليه السلام هنا نبرة هادئة، تختلف عما سبق، فلكل مقام مقال، والمقام هنا ليس مقام خوف على مساكين سيغرقون في لجة البحر، ولا مقام شفقة على غلام قتيل، ولكن إقامة جدار مائل، قد يهدد حياة المارة، وهو نوع من الإصلاح، وصناعة المعروف وبذل الخير، لذلك نجد كلمات موسى عليه السلام جاءت هادئة عما سبقها، فنجده عليه السلام قيّد اقتراحه بمشيئة الخضر ﴿... لَوْ شِئْتَ...﴾، ولو جاء الأسلوب خالياً من هذا القيد؛ كأن يُقال: (لو اتخذت عليه أجراً) قد يشم من هذه الصيغة الإلزام وفيه ما فيه !!، فضلاً عن أساليب أخرى أشد، كأن يقال: (أأقمته لهم بغير أجر، وقد منعونا الطعام).

كما أن تتكبير كلمة أجراً، فيه لون آخر من التلطف في الخطاب، وكأنه يقول له: أجراً تحدده أنت، ويرى صاحب التحرير والتتوير أن " هَذَا اللَّوْمُ يَنْضَمُّنْ سُؤَالًا عَنْ سَبَبِ تَرْكِ الْمَشَارَطَةِ عَلَى إِقَامَةِ الْجِدَارِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الْأَجْرِ، وَلَيْسَ هُوَ

لَوْمًا عَلَى مُجَرَّدِ إِقَامَتِهِ مَجَانًا، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ وَهُوَ غَيْرُ مَلُومٍ" (١). " ودل لوم موسى الخضر، على أن لم يأخذ أجر إقامة الحائط على صاحبه من أهل القرية، على أنه أراد مقابلة حرمانهم لحق الضيافة بحرمانهم من إقامة الجدار في قريرتهم" (٢).

وقال نجم الدين الطوفي: " هذا تعريض من موسى بالاعتراض والإنكار؛ إذ كان قد التزم له تركه وألا يصاحبه إن عاوده ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْتِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٧٨) [الكهف: ٧٨] وذلك فيه ترتيب أحكام التصريح على التعريض إذا أفهم معناه بقريضة؛ لأن الخضر رتب على تعريض موسى بالإنكار من مفارقتة ما كان التزمه له بالتصريح به" (٣).

التوجيه البلاغي للقراءات المتواترة في قوله ﴿...لَاتَّخَذَتْ...﴾:

وردت في كلمة ﴿ لَاتَّخَذَتْ ﴾ قراءتان متواترتان كل منهما تُصور جانباً مما قصده موسى ﷺ:

١- قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿ لَتَّخَذَتْ ﴾ بتخفيف التاء وكسر الخاء من غير ألف وصل.

٢- وقرأ الباقون ﴿ لَاتَّخَذَتْ ﴾ بتشديد التاء وفتح الخاء وألف وصل (٤).

(١) التحرير والتنوير (١٦ / ٩).

(٢) السابق (١٦ / ٧).

(٣) الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية (ص: ٤١٦). مرجع سابق

(٤) انظر النشر في القراءات العشر ٢/٢٣٦.

فقراءة التخفيف تفيد أن موسى عليه السلام عرضَ على الخضر أخذ الأجرة على إقامة الجدار، بينما قراءة التشديد، تفيد أن موسى عليه السلام، حرّض الخضر، وحثه على ذلك، ولم يكتف بمجرد العرض.

يقول الإمام الألويسي: " قال موسى عليه السلام : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ تحريضاً للخضر عليه السلام، وحثاً على أخذ الجعل، والأجرة على ما فعله، ليحصل لهما بذلك الانتعاش، والتقوى بالمعاش، فهو سؤال له لِمَ لَمْ يَأْخُذْ الأجرة واعتراض على ترك الأخذ فالمراد لازم فائدة الخبر؛ إذ لا فائدة في الإخبار بفعله، وقيل: لم يقل ذلك حثاً، وإنما قاله تعريضاً بأنَّ فعله ذلك فضول، وتبرع بما لم يطلب منه من غير فائدة، ولا استحقاق لمن فعل له مع كمال الاحتياج إلى خلافه، وكان الكليم عليه السلام لما رأى الحرمان ومساس الحاجة، والاشتغال بما لا يعني لم يتمالك الصبر فاعترض". (١) وقال القاضي أبو السعود: "...تحريضاً له على أخذ الجعل لينتعشا به أو تعريضاً بأنه فضولٌ لما في (لو) من النفي؛ كأنه لما رأى الحرمان، ومساس الحاجة، واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك الصبر". (٢)

المشهد الثامن: فراق ووفاء

﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) ﴾

[الكهف: ٧٨]

لئن كانت أفعال الخضر عليه السلام شديدة الغموض، فإن أقواله وردوده، على موسى عليه السلام، كانت شديدة الوضوح والتحديد، ومع هذا التباين بين غموض الأفعال، ووضوح الأقوال يزداد المتابع للقصة تشوقاً إلى نهايتها فهو - بلا شك - ينتظر من

(١) تفسير الألويسي = روح المعاني (٨ / ٣٣٠).

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٥ / ٢٣٧).

صاحب تلك العبارات الواضحة المحددة، أن يُبدد بمثلها غموض أفعاله؛ ولا أدل على درجة وضوح عبارات الخضر من قوله لموسى: ﴿الَّذِي قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾:

فلا عبارة أوضح منها، في باب إنهاء الصحبة، وعزم المفارقة. و " الإشارة إلى الفراق الموعود بقوله: ﴿...فَلَا تُصَاحِبْنِي...﴾ أو إلى الاعتراض الثالث. أو إلى الوقت الحاضر. " (١)، " واسم الإشارة يُفسر المقصود منه خبره وتَأخِيرُ الْمُشَارِ إِلَيْهِ عَنِ الْإِشَارَةِ اسْتِعْمَالٌ بَلِيغٌ فِي مَقَامِ التَّشْوِيقِ " (٢) " ولما كان ذلك سبب الفراق أو محله، سماه به مبالغة " (٣)

وفي الآية " إِضَافَةٌ بَيْنَ إِلَى غَيْرِ مُتَعَدِّدٍ سَوَّغَهَا تَكَرُّرُهُ بِالْعَطْفِ بِالْوَاوِ " (٤) و " سيبويه يذهب إلى أن إعادة (بين) في مثل هذا على التوكيد أي فراق بيننا " (٥) قال القرطبي: " وتكريره " بيني وبينك " وعدوله عن بيننا لمعنى التأكيد. قال سيبويه: كما يقال أخزى الله الكاذب مني ومنك، أي منا " (٦).

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل (٧ / ٥١).

(٢) انظر التحرير والتنوير (٢ / ١٧)، (١١ / ٨١) بتصرف.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢ / ١١٧).

(٤) تفسير الجالين (ص: ٣٩٢).

(٥) معاني القرآن للنحاس (٤ / ٢٧٤).

(٦) تفسير القرطبي (١١ / ٣٣).

﴿سَأُنَبِّئُكَ...﴾ " السَّيِّئِ الْمَفْرَدَةِ، حَرَفٌ يَخْتَصُّ بِالْمُضَارَعِ، وَيُخَلِّصُهُ لِلِاسْتِقْبَالِ، وَيَنْزِلُ مِنْهُ مَنْزِلَةُ الْجُزْءِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَعْطَلْ فِيهِ مَعَ اخْتِصَاصِهِ بِهِ" (١)، وَيُرَى ابْنَ هِشَامٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنْ دَخَلَ السَّيْنِ عَلَى " مَا يُفِيدُ الْوَعْدَ أَوْ الْوَعْدِ مُقْتَضٍ لِتَوْكِيدِهِ وَتَثْبِيتِ مَعْنَاهُ" (٢) وَفِي مَذْهَبِ الْبَصْرِيِّينَ، أَنَّ مَدَّةَ الْاسْتِقْبَالِ مَعَهَا أَضْيَقُ مِنْهَا مَعَ (سُوفَ). (٣)

وَهَكَذَا فَإِنَّ السَّيْنَ هُنَا أَفَادَتْ أَمْرَيْنِ مَعًا: أَنَّ هَذَا الْإِنْبَاءَ سَيَكُونُ عَنِ اقْتِرَابِ. وَأَنَّ وَقُوعَهُ أَمْرٌ مُحَقَّقٌ مُؤَكَّدٌ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَقَامَ، يَقْتَضِي الْأَمْرَيْنِ مَعًا، السَّرْعَةَ وَالتَّأَكِيدَ؛ فَإِنَّ الْمَخَاطَبَ - وَهُوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى شَفَا الْفِرَاقِ فَهُوَ فِي حَالَةٍ يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى مَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَرَارَةَ ذَلِكَ الْفَرْقِ الْوَشِيكَ، وَلَيْسَ أَنْجَعُ مِنْ وَعْدِ مُحَقَّقٍ سَرِيعٍ بِثَمَرَةِ رِحْلَتِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهَا، بَيَانُ الْحِكْمَةِ الْمَسْتَكْنَةِ وَرَاءَ تِلْكَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي أَثَارَتِ غَضَبَهُ وَعَتَابَهُ!!

وَإِثَارَ كَلِمَةَ ﴿سَأُنَبِّئُكَ...﴾ عَلَى (سَأُخْبِرُكَ)؛ لِأَنَّ " النَّبَأَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْإِخْبَارِ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ الْمَخْبَرُ، فِي حِينٍ أَنْ الْخَبَرَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَا يَعْلَمُهُ وَبِمَا لَا يَعْلَمُهُ" (٤) فَـ " الْمَعْنَى الْمَحْوَرِي لِمَادَةِ (نَبَأٌ): ظَهُورٌ أَوْ طُرُوءٌ مَسْبُوقٌ أَوْ مَكْنُوفٌ بِخَفَاءِ مَا" (٥).

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعراب لابن هشام (ص: ١٨٥).

(٢) انظر السابق

(٣) السابق نفسه.

(٤) انظر الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٤١)

(٥) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم ٢٢٠٢/٤.

كما أن النبأ الخبر الذي له شأن عظيم " وَلِهَذَا يُقَالُ سَيَكُونُ لِفُلَانٍ نَبَأٌ وَلَا يُقَالُ
خبر بهذا المعنى "(١).

﴿ ... سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾: و " أثبت تاء الاستفعال هنا
وفيما قبله إعلاماً بأنه ما نفى إلا القدرة البليغة على الصبر، إشارة إلى صعوبة ما
حمل موسى من ذلك، لا مطلق القدرة على الصبر "(٢).

" و(ما) عبارة عن الأفعال الصادرة من الخضر -عليه السلام- وهي خرق
السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، ومآلها خلاص السفينة من اليد الغاصبة وخلص
أبوي الغلام من شره مع الفوز بالبدل الأحسن واستخراج اليتيمين للكنز، وفي جعل
الموصول عدم استطاعة موسى -عليه السلام- للصبر دون أن يقال بتأويل ما
فعلت أو بتأويل ما رأيت ونحوهما نوع تعريض به -عليه السلام- وعتاب، ويجوز
أن يقال: إن ذلك لاستثارة مزيد توجهه وإقباله لتلقي ما يلقي إليه، وصبراً مفعول
تستطع وعليه متعلق به " (٣). " وجملة سأنبئك مستأنفة استئنافاً بيانياً، تقع جواباً
لسؤال يهجس في خاطر موسى -عليه السلام- عن أسباب الأفعال التي فعلها
الخضر -عليه السلام- وسأله عنها موسى فإنه قد وعده أن يحدث له ذكراً مما
يفعله. والتأويل: تفسير لشيء غير واضح، وهو مشتق من الأول وهو الرجوع.
شبه تحصيل المعنى على تكلف بالرجوع إلى المكان بعد السير إليه "(٤). وفي صلة
الموصول من قوله: ما لم تستطع عليه صبراً تعريض باللوم على الاستعجال وعدم

(١) الفروق اللغوية للعسكري (ص: ٤١)

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢ / ١١٨).

(٣) تفسير الألوسي = روح المعاني (٨ / ٣٣١).

(٤) انظر التحرير والتنوير (١٠ / ١٦).

الصبر إلى أن يأتيه إحداث الذكر حسبما وعده بقوله فلا تسئلني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً^(١).

والسر في تقديم " (عَلَيْهِ) عَلَى (صَبْرًا)؛ لأن ذلك أدعى للاهتمام " (٢).

من بلاغة الذكر والحذف في حروف المباني:

ورد الفعل (تستطيع) (بذكر التاء الثانية والياء) في القصة ثلاث مرات، وورد بحذف الياء مرة واحدة، وورد بحذف التاء الثانية، والياء معاً مرة واحدة، ولا شك أن هناك معنى بلاغياً يقف وراء كل من الحذف والذكر، والأمر هنا يرجع إلى مقامي الإيجاز، والتفصيل؛ ففي مقام الإيجاز أوجز فحذف من الفعل حرفاً أو حرفين، وفي مقام التفصيل ذكر الفعل بصورته التامة من غير حذف، وتوضيح ذلك أن الخضر عليه السلام في مقام التحذير، والعتاب احتاج إلى التفصيل فذكر الفعل من غير حذف أي: من حروفه ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢] ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥]

بينما في مقام الإنباء، وقرب الفراق وهو مقام إيجاز، حذف من الفعل حرفاً واحداً ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٧٨)

ثم عندما علم موسى عليه السلام أسرار تلك الأحداث حذف من الفعل حرفين فمقام الكلام بعد انكشاف الأسرار أدعى إلى الإيجاز.

من معالم التربية في قوله: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٧٨) [الكهف: ٧٨]

(١) التحرير والتنوير (١٦ / ١١).

(٢) زهرة التفاسير (٩ / ٤٥٦٨).

قال الطوفي: " فيه استحباب التبرؤ من التهم وإقامة الأعدار بكشف الأسرار" (١).

المشهد التاسع: سر السفينة

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ (٢) يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩)﴾ [الكهف: ٧٩].

تُقابل هذه الآية الكريمة، بين نوعين من البشر:

(مساكين ضعفاء يعملون)، فيكسبون رزقهم من عرق الجبين، وكد اليمين، وكدح السنين، ومخاطرة بالحياة، في لُجج البحار.

و(ملك قوي جبار يغتصب)، إنه لا يغتصب بعضاً من كسب أولئك المساكين الكادحين. كلا، ولكنه يستولي على آلة العمل وسبب الرزق إنه يأخذ السفينة نفسها لا ما يحملونه فيها، إن هذه الأيدي التي تعمل عملاً دعويًا مستمرًا - وهذا مات.

تُوحى به صيغة المضارع (يعملون) - سيحولها ذلك المغتصب إلى أيدي عاطلة، ولا مفر بعد ذلك من أن تتحول إلى أيدي سائلة محرومة، أو ناهية غاصبة!!!

وتظهر بلاغة المقابلة واضحة بين الكلمات فهم ﴿...مَسَاكِينَ﴾، وهو ﴿مَلِكٌ﴾، وهم ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بينما هو ﴿يَأْخُذُ...غَصْبًا﴾، وتأمل ما توحى به كلمة

(١) الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية للطوفي (ص: ٤١٦).

(٢) وهو دليل للشافعي على أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين، لأن هؤلاء يملكون سفينة. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢ / ١١٩).

﴿...مَسَاكِين﴾ من ضعف وحاجة، وما توحى به كلمة ﴿مَلِك﴾ من قوة وسطوة واستغناء.

ثم تأمل ما توحى به كلمة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من مروءة، وشرف، ودأب على العمل، واستمرار فيه، وما توحى به كلمتا ﴿يَأْخُذُ...غَضَبًا﴾ من خسة، وطمع، وظلم، وقسوة قلب واستمرار في الغي.

وهذا الملك لن يأخذ هذه السفينة وحدها، بل ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ إنها ليست نزوة عابرة، أو كبوة عارضة، أو ظلم طارئ؛ إنها سياسة ثابتة وقانون عام !!!
والما كان كل من الغضب والمسكنة سبباً لفعله، قدمها على الغضب، إشارة إلى أن أقوى السببين الحاملين على فعله الرأفة بالمساكين " (١)

ولو كان ذلك الذي يغتصب، قاطع طريق، أو مجرم عتيد، فإن الشيء من معدنه لا يُستغرب، ولكن الذي يغتصب هنا (ملك)، إنه صاحب السلطة التي من المفترض أن تحمي أولئك المساكين إن وقع عليهم ظلم !!!!. "ومعنى كل سفينة غصبا أي صالحه، بقريئة قوله فأردت أن أعيبها" (٢) " ولو أبقى العموم على ظاهره لم يكن للتعييب فائدة.

غَصَبًا من أصحابها، وانتصابه على أنه مصدر مبين لنوع الأخذ، والظاهر أنه كان يغضب السفن من أصحابها ثم لا يرددها عليهم، وقيل: كان يسخرها ثم يرددها " (٣).

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢ / ١٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٦ / ١٢).

(٣) تفسير الألوسي = روح المعاني (٨ / ٣٣٣).

بلاغة التصوير في ذكر الجار والمجور ﴿ في البَحْرِ ﴾:

ولو حذف الجار والمجور ﴿... في البَحْرِ﴾ لفهم قطعاً من السياق؛ فإن عمل السفينة يكون في البحر لا في البر، فضلاً عن تقدم ذكر خرقها، وخشية موسى ﷺ من غرق أهلها؛ وكل ذلك يدفع الذهن إلى مكان تلك السفينة إنه البحر وحده، فلماذا إذاً جيء بالجار والمجور ولم يُكتفى بالقول مثلاً: (كانت لمساكين يعملون فأردت أن أعيها)؟

ولعل الجواب الصحيح إن شاء الله تعالى:

أولاً: أن ذلك كان لتصوير مشقة عملهم وخطورته؛ فلا شك أن العمل في البحر أصعب ومخاطره أشد؛ وكم ضرب الله في كتابه المثل، بفلك هاجت تحتها الأمواج، وتلاعبت بها الرياح، كمثل على حالة الاضطرار، وعجز الأسباب واشتداد الكرب (١).

ثانياً: وفي ذكر الجار والمجور (في البحر) نقل للقارئ، ليشاهد بمخيلته تلك السفينة، تجري بأولئك المساكين، على صفحة الماء، وهم آملين في رزق الله، فيزداد عطفاً عليهم ورقة لحالهم.

ثالثاً: كما أن ذلك كان أيضاً لتصوير بشاعة ما يفعله ذلك الملك؛ إنه لا يترك هؤلاء المساكين، يحصلون على قوتهم، وسط هذه المخاطر والمتاعب؛ إنه

(١) قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمُ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣]

ليأبى إلا أن يموتوا جوعاً، لا غرقاً في حادث عمل، وقد تركوا له البر، فأبى إلا أن يلاحقهم في البحر !!

وراء: " اسم الجهة التي خلف ظهر من أضيف إليه ذلك الاسم، وهو ضد أمام وقدام. ويستعار (الوراء) لحال تعقب شيء شيئاً وحال ملازمة طلب شيء شيئاً بحق وحال الشيء الذي سيأتي قريباً، كل ذلك تشبيهه بالكائن خلف شيء لا يلبث أن يتصل به كقوله تعالى: ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ [الجمعة: ١٠]. وبعض المفسرين فسروا وراءهم ملك بمعنى أمامهم ملك، فتوهم بعض مدوني اللغة أن (وراء) من أسماء الأضداد، وأنكره الفراء وقال: لا يجوز أن تقول للذي بين يديك هو وراءك، وإنما يجوز ذلك في المواقيت من الليالي تقول: وراءك برد شديد، وبين يديك برد شديد. يعني أن ذلك على المجاز. قال الزجاج: وليس من الأضداد كما زعم بعض أهل اللغة." (١).

قال الإمام البقاعي: "ولعله عبر بلفظ (وراء) كناية عن الإحاطة بنفوذ الأمر في كل وجهة " (٢)

من بلاغة النظام والتناسب بين موضوعات سورة الكهف:

ولعله من البلاغة العالية أن تأتي تلك المفارقة بين (مسكين شريف يعمل، وقوي وضيع يغتصب) على مقربة شديدة من قصة (ذي القرنين) ذلك الملك العادل الذي أعطى، واتقى، وساعد الضعفاء، وعلمهم كيف يعملون، وشاركهم العمل، وعف عن مال المستضعفين في الأرض. ليقارن كل ذي قلب بين الإنسانية التي

(١) التحرير والتنوير (١٦/١١-١٢).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢/١١٩).

تُنافس الملائكية، وبين البهيمية التي خرقت حتى قانون البهيمية فصارت أضل من الأنعام. وسبحان من سمى كلامه مثاني.

ومن وجوه البلاغة في الآية الكريمة أيضاً: اللف والنشر: ففي قوله ﷻ: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ لف ونشر مرتب (١) بعد ذكر ركوب السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار" (٢).

والتقديم والتأخير: وذلك في قوله ﷻ: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾: ف " وجملة فأردت أن أعيبها متفرعة على كل من جملتي ﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾، و ﴿وَكَانَ رَوَّاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]، فكان حقها التأخير عن كلتا الجملتين بحسب الظاهر، ولكنها قدمت خلافاً لمقتضى الظاهر لقصد الاهتمام والعناية بإرادة إعاقة السفينة حيث كان عملاً ظاهره الإنكار وحقيقته الصلاح زيادة في تشويق موسى إلى علم تأويله؛ لأن كون السفينة لمساكين مما يزيد السامع تعجباً في الإقدام على خرقها. والمعنى: فأردت أن أعيبها وقد فعلت. وإنما لم يقل: فعبتها، ليدل على أن فعله وقع عن قصد وتأمل. وقد تطلق الإرادة على القصد أيضاً. وتصرف الخضر في أمر السفينة تصرف برعي المصلحة الخاصة عن إذن من الله بالتصرف في مصالح الضعفاء. إذ كان الله أعلمه بحال الملك، أو كان الله أعلمه بوجوده حينئذ، فتصرف الخضر قائم مقام تصرف المرء في ماله بإتلاف بعضه لسلامة الباقي، فتصرفه

(١) معنى اللف والنشر: " أن تلف بين شيئين في الذكر ثم تتبعهما كلاماً مشتقاً على متعلق بواحد وبآخر من غير تعيين ثقة بأن السامع يرد كلا منهما على ما هو له، كقوله عز وعلا: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣) [القصص: ٧٣]. مفتاح العلوم (ص: ٤٢٥).

(٢) التفسير المنير للزحيلي (٦ / ١٦).

الظاهر إفساد وفي الواقع إصلاح؛ لأنه من ارتكاب أخف الضررين. وهذا أمر خفي لم يطلع عليه إلا الخضر؛ فلذلك أنكره موسى". (١).

والإيجاز بالحذف: في قوله سبحانه: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (الكهف) (٧٩).

" فقد حذف الصفة بعد سفينة، إذ المراد بها السفينة الصالحة، لدلالة الآية على هذه الصفة، فإن عيب السفينة لا يُخرجها عن أن تكون سفينة، وقد أوحى إلينا هذا الحذف، بأن الملك ينظر إلى السفينة المعيبة، كأنها فقدت حقيقتها " (٢).

قلت: وفي هذا ما يدل على الأشر والبطر، فهو لا يغتصب حاجة اضطرته، أو لنزلة أمت بمملكته كحرب طارئة أو مجاعة جائحة، ولكنه اغتصاب المستغني المستكثر من غير حاجة، اللهم إلا الجشع والطمع، ولا شك أن هذا أوغل في الجريمة والطغيان.

المشهد العاشر: سر الغلام

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١)﴾ [الكهف: ٨١].

لله در الإيمان !! يصنع لأهله حياة طيبة، وهم لا يشعرون؛ أراد الله لهذين الأبوين أن يسلما من ذلك المصير الذي صورته آيات سورة الأحقاف؛ صورة والدين يستغيثان الله، ألماً وحرقة، من كفر ولدهما، وهو مشهد يمثل كآبة وحرناً:

(١) انظر التحرير والتنوير (١٦ / ١٢).

(٢) من بلاغة القرآن ص ٩٩ أحمد البيلي البدوي.

﴿وَالَّذِي قَالَ لِبَوْلَدَيْهِ أَفْ لَكُمْمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَنْغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨)﴾ [الأحقاف: ١٧، ١٨].

وأن ينعم بولد يتحقق به الوجه الآخر وهو وجه مشرق بالرضا والسرور:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَرُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)﴾ [الأحقاف: ١٥ - ١٧]. ولا شك أن بكاء يوم أو أيام خير من بكاء العمر، وضياع الأمل.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوَةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١)﴾ [الكهف: ٨١]. فالآية رقم: (٨٠) تخلية لنفس موسى عليه السلام من أي أثر لألم ألم به لمقتل ذلك الغلام، والآية رقم: (٨١) تخلية ببيان العوض الصالح. فقد ركزت الآية الأولى على الأثر السيئ لحياة ذلك الغلام على أبويه المؤمنين، وجيء لهذا الغرض بأقوى الألفاظ ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾

و حُذِفَ وصف الغلام بالكفر لدلالة قوله تعالى: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ﴾.

وتم التعبير بـ ﴿فَخَشِينَا﴾ دون (فخفنا)؛ لأن الخشية كما يقول الراغب - رحمه الله - " خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه، ولذلك خصّ العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر/

[٢٨]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاعَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى﴾ [عبس/ ٨ - ٩]، ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق/ ٣٣]، ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا﴾ [الكهف/ ٨٠]، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة/ ١٥٠] (١)

وفي التعبير بـ ﴿أَبَوَاهُ﴾ تغليب أي أبوه وأمه. " وَضَمِيرًا الْجَمَاعَةَ فِي قَوْلِهِ ﴿فَخَشِينَا﴾ وَقَوْلِهِ ﴿فَارَدْنَا﴾ عَائِدَانِ إِلَى الْمُنْكَمِ الْوَاحِدِ بِإِظْهَارِ أَنَّهُ مُشَارِكٌ لِغَيْرِهِ فِي الْفِعْلِ. وَهَذَا السَّتْعَمَالُ يَكُونُ مِنَ التَّوَاضُعِ لِمَنْ التَّعَاطَمُ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ الْإِعْلَامِ بِأَنَّ اللَّهَ أَطْلَعَهُ عَلَى ذَلِكَ وَأَمَرَهُ فَنَاسَبَهُ التَّوَاضُعُ فَقَالَ: فَخَشِينَا فَارَدْنَا، وَلَمْ يَقُلْ مِثْلَهُ عِنْدَ مَا قَالَ: ﴿فَارَدْتُ أَنْ أُعْيِبَهَا﴾؛ لِأَنَّ سَبَبَ الْأَعَابَةِ إِدْرَاكُهُ لِمَنْ لَهُ عِلْمٌ بِحَالِ تِلْكَ الْأَصْقَاعِ " (٢).

وأما قوله: ﴿... أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فقد اجتمعت ثلاث كلمات، قوية مكثفة الدلالة، على ما سيُحَقِّقُهُ ذَلِكَ الْغُلَامُ بِأَبُوِيهِ، مِنْ أَدَى، لَوْ أَنَّهُ بَقِيَ حَيًّا، وَلَعَلَّ أَقْوَى مَا يَشْرَحُ تِلْكَ الْكَلِمَاتِ هُوَ مَشْهَدُ مَنَادَاةِ نُوحٍ ﷺ لِابْنِهِ الْكَافِرِ، وَقَدْ حَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرُقِينَ، ثُمَّ اسْتِغَاثَةَ الْأَبِ الْمَكْلُومِ مِنْ أَجْلِ ابْنِهِ الْغَرِيقِ، وَالْجَوَابَ الْإِلَهِيَّ عَلَى تِلْكَ الْاسْتِغَاثَةِ (٣).

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٨٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٣).

(٣) قال الله تعالى: ﴿... وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرُقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَفْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ

و " استعمل الخضر ضمير المتكلم المشارك ﴿فَحَسْبِينَا﴾ تواضعاً منه تشبيهاً لنفسه بمن له مشارك في الفعل، وهو استعمال موجود في الكلام. " (١).

"وأما قوله: ﴿...فَارَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ في كلمة ﴿... زَكَاةً...﴾ " مُرَاعَاةً لِقَوْلِ مُوسَى ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ " (٢) قلت: كأن الخضر عليه السلام يقول لموسى عليه السلام إن تلك الصفة حقيقة بالولد الثاني، الذي سيرزق به هذين الأبوين، لا الأول الذي لو عاش لكان طاغياً كافراً.

من معالم التربية في الإيمان بالقدر:

في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْعُلَامَ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ﴾ حجة على المعتزلة والله شديدة، لأن الأمة بأسرها مجمعة على أن المولود بين أبوين مؤمنين يكون مؤمناً، وهذا مولود طبع كافراً، وأبواه مؤمنان، وليس في ذلك ارتياب بتة لإباحة قتله، وإخبار الكفر عنه بلفظه. فلو لم يكن من الحجة عليهم إلا هذا الغلام المخلوق كافراً. وإباحة قتله قبل بلوغ الحنث وجري القلم عليه، والسلك به غير مسلك أبيه لكفى، فأين تحذلقهم، وادعاء الفلسفة في معرفة عدل الله عندهم بعقولهم الناقصة العائرة، وهل يقدرّون في هذا الموضوع إلا على التسليم لعدل لا يعرفونه ضرورة، فيلزمهم أن يسلموه في باب القضاء والقدر ضرورة، أو يكفرون بالقرآن وينسبون الخضر - صلى الله عليه وسلم - إلى أنه قتل في الحقيقة نفساً زكية بغير نفس كما رأى موسى - صلى الله عليه وسلم - من ظاهر فعله، وكيف لهم بذلك - ويلهم - وقد سلمه موسى للخضر وعلم أنه الحق. ثم أخبر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم

=الجاهلين (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) ﴿ [هود: ٤٢ - ٤٨].

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٣٨)

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٣).

- وأنزله في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من غير إنكار عليه، بل أخبر أنه فعل بأمره -تبارك وتعالى- حينما يقول إخباراً عنه - صلى الله عليه وسلم -: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٨٢) [الكهف: ٨٢] (١).

الفرق بين أثر السماع وأثر المعاينة:

لعله من اللطائف، أن نستذكر في هذا المقام، ذلك الحوار الذي جرى بين موسى، وأبيه آدم - عليهما السلام - في مسألة خروجه من الجنة، ونقلته لنا السنة المطهرة؛ إذ روى الإمام البخاري بسنده، أن أبا هريرة، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: " احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي أَخْرَجْتَكْ خَطِيئَتِكَ مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ، ثُمَّ تَلَوْنِي عَلَى أَمْرٍ قُدِّرَ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ " فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى مَرَّتَيْنِ» (٢).

فإذا كانت الحجة النظرية، قد لاحت في كلمات آدم، فإن رحلة نبي الله موسى مع الخضر هي الدرس العملي لتلك الكلمات، ولعلنا نستذكر كذلك، أن موسى لم يُلِقِ الألواح، لَمَّا أَخْبَرَهُ اللَّهُ أَنْ قَوْمَهُ قَدْ عَبَدُوا الْعَجَلَ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَمَا عَادَ، وَرَأَى، وَسَمِعَ أَلْفَى الْأَلْوَابِ مِنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ، وَقَدْ عَلِقَ النَّبِيُّ عَلَى ذَلِكَ قَائِلًا: " لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَايِنَةِ، إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعَجَلِ، فَلَمْ يُلِقِ الْأَلْوَابَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا، أَلْفَى الْأَلْوَابَ فَانْكَسَرَتْ " (٣).

(١) النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام (٢/ ٢٢١). مرجع سابق

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٥٨) كتاب: أحاديث الأنبياء. باب: وفاة موسى وذكر ما بعده. حديث رقم: ٣٤٠٩.

(٣) مسند أحمد ط الرسالة (٤/ ٢٦٠) وقال محققه: "حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير سريج بن النعمان، فمن رجال البخاري...".

وقد كانت رحلة موسى عليه السلام، مع الخضر عليه السلام، كلها من باب المُعَايَنَة لا السماع، ومعالم شخصية موسى عليه السلام، المحبة للعدل والخير، السريعة في التجاوب مع الأحداث، تُؤكّد لنا أنه كان شديد الكظم لغيظه، شديد التحكم في نفسه؛ فهو لم يتجاوز مرحلة الكلام إلى الفعل والمنع، مع أنه هو ذاته الذي أخذ برأس ولحية أخيه هارون (النبي المرسل) يجره إليه، عندما تملكه الغضب، غيراً على توحيد الله - تباركت أسماؤه - بل وألقي الألواح من شدة الغضب. فسبحان من اصطفى أولئك المرسلين وجعل في قصصهم عبرة لأولي الألباب.

من معالم التربية:

ومن الملامح التربوية في ذلك أن التطبيق العملي للمعارف النظرية يزيدنا رسوخاً في النفس.

المشهد الحادي عشر: سر الجدار

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٨٢].

في هذه الآية الكريمة يُقدّم الخضر عليه السلام لموسى عليه السلام حيثيات قضية (الجدار)، ويبدأها بما يُثير الشفقة ويسترعي الانتباه؛ فهذا الجدار ليتيمين، وهذا وصف يغني عن كلام طويل؛ فمعنى أنهما يتيمان، يفيد أنهما لا يستطيعان إقامة الجدار، وكذلك لا يستطيعان الدفاع عن كنزهما إن ظهر قبل بلوغهما، وقول الخضر عليه السلام: ﴿ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ لتبنيه موسى عليه السلام إلى أن من شأن اليتيم أن يُؤكّل ماله وهذا مقامه؛ إنه يعيش في المدينة التي خبّرت أنت يا موسى لؤم أهلها بنفسك، وإلا فإنه لا شك في معرفة موسى عليه السلام مكان الجدار، وأنه في تلك المدينة، فقد سبق في القصة قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا ﴾ [الكهف: ٧٧] أي في تلك القرية ذاتها.

يقول الإمام البقاعي: " ولما كانت القرية لا تتافي التسمية بالمدينة، وكان التعبير بالقرية أولاً أليق، لأنها مشتقة من معنى الجمع، فكان أليق بالذم في ترك الضيافة لإشعاره ببخلهم حالة الاجتماع وبمحببتهم للجمع والإمساك، وكانت المدينة بمعنى الإقامة، فكان التعبير بها أليق للإشارة به إلى أن الناس يقيمون فيها، فينهدم الجدار وهم مقيمون فيأخذون الكنز " (١).

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ فماذا عن أمهما ؟!!!:

ومن المفارقة اللطيفة، الدالة على كون قصص القرآن، قصص حق، في كل جزئياته، أنه فرق بين حال الغلام القليل، وحال الغلامين اليتيمين في أمرين:

أولهما: قوله عن الغلام ﴿...فَكَانَ أَبُوَاهُ...﴾ بينما قال عن الغلامين: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا... ﴾ فهناك شخصية غائبة عن الذكر إنها أم الغلامين، وهذا يدل - بادئ ذي بدء - على أن قصص القرآن الكريم يُراعي أدق التفاصيل في مطابقة الواقع؛ فهو قصص بالحق لا بالباطل، بالحقيقة لا بالخيال.

ويبقى السؤال ما هو السر وراء غياب الإشارة إلى أم هذين اليتيمين ؟ تتعدد الاحتمالات في الإجابة على هذا السؤال: هل كانت أمهما على قيد الحياة تعيش معهما عيشة الترقب والانتظار ليوم يبلغون فيه مبلغ الشباب ؟ هل ماتت لكنها لم يسعفها عملها بأن تُكتب في الديوان الإلهي للصالحين مثل زوجها ؟ هل تزوجت بعد وفاة زوجها، وتركت يتيماها فريسة لمرارة اليتيم ؟ الله أعلم أي ذلك أو غيره كان، فقد اكتفى السياق القرآني بمعقد الحدث، وذروة سنام العبرة، ألا وهو صلاح ذلك الأب.

بين عاطفة الأمومة..... وعاطفة الأبوة..... وعاطفة الإيمان !!

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢ / ١٢٢).

إن عاطفة الأم تجاه أولادها، هي - بلا شك - أقوى العواطف الإنسانية الفطرية، على الإطلاق، ومن حكمة النبوة الخاتمة وبلاغتها، اختيار لهفة أم على رضيعها، مناسبة لتقريب معنى الرحمة الإلهية من عقول البشر (١) وقد قص القرآن الكريم، كيف أصبح فؤاد أم موسى فارغاً فزعاً، على وليدها، وقد جرى به ماء اليم، ولم يهدأ ذلك القلب المنتفض إلا بتثبيت إلهي خاص، بينما لم يرد في قصة موسى عليه السلام ذكرٌ لوالده مطلقاً، وعندما أراد هارون عليه السلام أن يكفكف من غضب أخيه موسى عليه السلام ذكره بأمه فناداه قائلاً: «... يَبْنُومُ لِمَا تَأْخُذُ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنْني خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)» [طه: ٩٤]، مع أنهما كانا أخوان شقيقان، ولكنه اختار هذا النداء؛ لأن في ذكر الأم تذكراً للمرحمة الأسرية، والتضحية التامة، وإنكار الذات، فحري بذكرها أن يُبدل غضب أخيه موسى هدوءاً وسكينةً.

وإذا كانت من وظيفة القصص القرآني التربوية والتهديب، وترسيخ القدوة الحسنة، فإن هذه العبارة الوجيزة «... وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا...» تخاطب عاطفة أخرى من أقوى العواطف الإنسانية؛ إنها عاطفة الأبوة الحانية، وهي تتلمس مستقبل فلذات الأكباد، في قادم الزمان، فالعمر سينتهي حتماً، فمن لثمرات القلب، وحبوات الفؤاد بعد الرحيل !!! فلا ينافس الأم في عاطفتها تجاه أولادها إلا أبوهم.

(١) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم سَبِيًّا، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحَلَّبُ تَدْبِيهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «أَتُرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ» قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا» صحيح البخاري كتاب: الآداب. باب: رحمة الولد وتقبيله. حديث رقم ٥٩٩٩ (٨ / ٨)

إن هذه العبارة على وجازتها، تلهب جذوة عاطفة الأبوة الجياشة، وتوجهها وجهة صحيحة، فتحمى النفس من أمواج الخوف العاتية، مما يخبئه القدر، فالحل ﴿... وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا...﴾، كم ساقى تلك العبارة من آباء لطريق التوبة، والتشبث بالسعي في دروب الصالحين !!، وكم تنزلت السكينة على قلوب الصالحين بسماعهم تلك القصة، وصدق الله ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ... ﴾ [يوسف: 3].

نتيجة: دل ما تقدم على أن رابطة الإيمان والصلاح هي المقدمة، وهي الأقوى أثراً فأثرها يبقى، وإن مات الإنسان؛ فقد بلغ والد الغلامين في نفعهما، بصلاحه وتقواه، ما لم تبلغه الأم بعاطفتها المجردة، وإن كانت أقوى العواطف الفطرية.

ثانيهما: الأمر الثاني الذي افترق فيه الحديث عن الغلام القتيل، والغلامين اليتيمين هو وصف أبوي الغلام القتيل بالإيمان، ووصف والد الغلامين اليتيمين بالصلاح.

ولعل السر وراء ذلك - والله أعلم - أن المقصود بيان كفر ذلك الغلام؛ فقد فهم من سياق وصف أبويه بالإيمان أنه سيكون كافراً. بينما جاء وصف والد اليتيمين بالصلاح؛ لأن بناء الجدار وحفظ حقوق الأيتام هو عمل من أعمال الصالحين، وقد كان أبوهما صالحاً فالجزاء من جنس العمل.

بين حفظ الكنز وحفظ الدين !!!

كما يترك لنا وصف والد الغلامين بالصلاح، الفسحة للقول: إِنَّ مَنْ حَفِظَ لِهَذَيْنِ الْغُلَامِينَ دُنْيَاهُمَا، بِحَفِظِ كَنْزِهِمَا، لَهُوَ أَكْرَمُ - تَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ - مِنْ الْأَيِّ حَفِظَ عَلَيْهِمَا إِيْمَانَهُمَا وَدِينَهُمَا؛ وَأَنَّ ذَلِكَ الْأَبَ الصَّالِحَ، وَهَذَيْنِ الْيَتِيمِينَ مِمَّنْ يَقْتَرِبُونَ مِنْ

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (٢١) [الطور: ٢١].

بلاغة التعبير في كلمة ﴿ أَشَدُّهُمَا ﴾:

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا... ﴾، لعله من المناسب التساؤل، عن سر التعبير هنا بالأشد، بينما جاء التعبير في سورة النساء بالرشد في قوله تعالى: ﴿ وَابْتُلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء: ٦].

والجواب: أن المقام في سورة النساء مقام مخاطبة أوصياء اليتامى، فاليتيم هنا له وصي يدفع عنه، ويشد أزره؛ فالحاجة إذاً إلى الرشد في التصرف هي الأقوى. بينما نجد المقام، في قصة اليتيمين، مقام ضعف بدني واجتماعي؛ فهذين اليتيمين بلا وصي، والراجح أن أبوهما لم يجد في تلك القرية البخيل أهلها من يأتّمه على كنزهما؛ فالحاجة هنا أدعى إلى بلوغ الأشد؛ فقد يبلغان الرشد، ولكن لا تزال قواهما البدنية قاصرة على ردع الطامعين، أو القدرة على استخراج الكنز، أما إذا بلغا أشدهما فقد استكملا مع الرشد القوة الرادعة؛ فما أحوجهما إليها في استخراج الكنز، وفي قرية البخلاء تلك !!!.

كنز علم أم كنز مال؟!؟

نقل بعض المفسرين، أن ذلك الكنز كان صُحُف علم، فيها بعض النصائح والحكم، ولم يكن مالاً.

قلت: وسياق القصة لا يستجيب لمثل هذا المعنى، فزهد أهل تلك القرية في مثل تلك الصحف إن سقط ذلك الجدار هو الراجح، فقد زهدوا في (سمت الخضر وموسى) وهما منّ هما في العلم والعمل، فمحل طمع أهل تلك القرية ليس في

صحف علم، فما أزهدهم فيها، وإنما هو كنز مما تعارف عليه الناس؛ صندوق مال، أو سبائك ذهب مثلاً، ولهذا أقام الخضر الجدار، ولهذا أيضاً احتاج اليتيمان إلى بلوغ الأشد.

كما أن استعمال القرآن الكريم، لمادة (كنز)، لم يتطرق إلى هذا المعنى الذي أرادوا حمل الآية عليه؛ بل أتى صراحة في معنى المال، والذهب، والفضة، ولمن شاء أن يتدبر تلك الآيات الكريمة:

﴿ فَالْعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (١٢) ﴿هود: ١٢﴾.

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) ﴾ [الفرقان: ٧ - ٩]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٣٤) ﴿التوبة: ٣٤﴾.

فهذه الآيات الكريمة لا يحتمل سياق أي منها إلا المعنى (المادي - الحقيقي) للكنز والكنوز.

وإذا كانت غاية، من هنا نحو ذلك التأويل، هي بيان قيمة العلم وفضله، فإن القرآن الكريم لم يُبق مجالاً للتكلف في بيان فضل العلم ومنزلته، فأيات القرآن حافلة ببيان ذلك الفضل، وتلك المنزلة وقد أتى لذلك بأروع أساليب البيان الواضحة

الصريحة وحسبنا قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ [آل عمران: ١٨].

يقول الإمام أبو حامد الغزالي - رحمه الله - مبيناً وجه الدلالة في هذه الآية على فضيلة العلم وأهله: " فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلاث بأهل العلم ونَاهِيكَ بهذا شرفاً وفضلاً وجلاءً ونبلاً " (١)

بل إننا نجد عند التأمل، أن دفن صحف العلم، لغير ضرورة، هو نوع من كتمان العلم المنهي عنه.

كما أن من أصول التفسير ألا يُصرف اللفظ عن معناه الحقيقي لمعنى مجازي إلا بقريضة، وهيئات أن تُوجد في الآيات قريضة تؤيد ما ذكره.

وصحح الإمام الرازي كونه كنز مال وقال: "... هذا هو الصحيح لوجهين.

الأول: أن المفهوم من لفظ الكنز هو المال.

والثاني: أن قوله: ويستخرجا كنزهما يدل على أن ذلك الكنز هو المال "

والله تعالى أعلى وأعلم (٢).

«فأردتُ» «فأردنا» «فأراد ربُّك»:

جاء في زاد المسير: "... وإنما قال: «فأردتُ» «فأردنا» «فأراد ربُّك»،

لأن العرب تؤثر اختلاف الكلام على اتفاقه مع تساوي المعاني، لأنه أعذب على

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (١/ ٤، ٥).

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١/ ٤٩٢).

الألسن، وأحسن موقعاً في الأسماع، فيقول الرجل: قال لي فلان كذا، وأنبأني بما كان، وخبرني بما نال." (١)

وقال الفخر الرازي: " كيف اختلفت الإضافة في هذه الإيرادات الثلاث وهي كلها في قصة واحدة وفعل واحد؟ والجواب: أنه لما ذكر العيب أضافه إلى إرادة نفسه فقال: أردت أن أعيبها ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على أنه من العظماء في علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية، ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله تعالى، لأن المتكفل بمصالح الأبناء لرعاية حق الآباء ليس إلا الله سبحانه وتعالى " (٢).

بلاغة الختام: يقول الإمام الطاهر بن عاشور: "...وَجَمَلَةٌ ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ فَذَلِكَ لِلْجَمَلِ الَّتِي قَبْلَهَا ابْتِدَاءٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾، فَالْإِشَارَةُ بِذَلِكَ إِلَى الْمَذْكُورِ فِي الْكَلَامِ السَّابِقِ وَهُوَ تَلْخِصٌ لِمَقْصُودِ كَحَوْصَلَةِ الْمُدْرَسِ فِي آخِرِ دَرْسِهِ " (٣).

وهكذا فقد أسدل الستار على تلك القصة المشحونة بالدروس والعبر لتأتي قصة أخرى من أحسن القصص، وهي قصة ذي القرنين.

(١) زاد المسير في علم التفسير (٣ / ١٠٤).

(٢) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٢١ / ٤٩٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٦ / ١٥).

النتائج

- ١- كشفت هذه الدراسة في مدخلها عن الوحدة الموضوعية لسورة الكهف، وتتمثل هذه الوحدة في قصة الصراع بين الإيمان والمادية. وبينت من خلال ذلك الترابط، والتناسب بين قصص سورة الكهف.
- ٢- كما كشفت هذه الدراسة في مدخلها أن حياة موسى -عليه السلام- مرت بثماني مراحل ومن خلال المقارنة، والاستنباط ترحج لدي أن زمن رحلته إلي الخضر كان في مرحلة وجوده مع بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر.
- ٣- و كشفت الدراسة عن مناسبة هذه القصة لما سبقها من قصة آدم عليه السلام.
- ٤- تم استنباط المناسبة الخاصة بين قصة موسى والخضر، والقصة التي تلتها وهي قصة ذي القرنين.
- ٥- عقدت مقارنة بين بداية قصة موسى والخضر وبدايات قصص سورة الكهف الأخرى وتم استنباط سر اختلاف بداية قصة موسى والخضر عن بدايات قصص: فنية الكهف وصاحب الجنين وذي القرنين. كما تم استنباط سر التشابه بين بداية قصة موسى والخضر مع ما ذكر من قصة آدم عليه السلام في سورة الكهف.
- ٦- يُعد الحديث النبوي الوارد في تفسير القصة أطول الأحاديث الواردة في تفسير قصص القرآن الكريم؛ وهذا يُشير إلى أهمية تلك القصة، وضرورة العناية بها عناية خاصة. كما يشير إلى ذلك بوضوح أيضاً قول النبي - صلى الله علي وسلم: « يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، لَوَدِدْنَا لَوْ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَمْرِهِمَا » (١).

(١) سبق تخرجه في مدخل الدراسة فقرة (التفسير النبوي للقصة).

- ٧- بينت بلاغة التصوير في ذكر الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿ فِي الْبَحْرِ ﴾.
- ٨- كشفت الدراسة عن سر الإجمال في إقامة جدار اليتيمين وسر التفصيل في بناء السد في قصة ذي القرنين.
- ٩- تم استنباط المناسبة الخاصة بين قصة موسى والخضر، والقصة التي تلتها وهي قصة ذي القرنين. استخرجت الدراسة من آيات القصة كثيرًا من الصور البيانية والنكات البلاغية. ومنها: الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ ﴾ [الكهف: ٧٧] المغزى البلاغي في إيتار كلمة ﴿ يَنْقُضُ ﴾ على نظائرها مثل: (يسقط). الف والنشر: ففي قوله: ﴿أَمَّا السَّقِينَةُ﴾ ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾.
- ١٠- وحفلت الدراسة ببيان كثير من الدروس التربوية فهي " تشرح حكمة شائعة هي " رب ضارة نافعة " أو حكمة أخرى مشابهة " لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع " إننا في هذه الحياة نعمل ما نرى أنه الصواب، وأنه النفع المحقق !! ثم نفاجأ بالأقدار تفد بنتائج أخرى قد تكون محزنة لنا، أو مجلبة للسخط، والأولى أن يستسلم المرء للقدر، وينزل عند قوله تعالى: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢١٦) [البقرة: ٢١٦]. هل يعني ذلك أن نفقد الثقة في أعمالنا وأحكامنا ؟ لا، أحكم خطتك واحشد الأسباب الصحيحة ودع ما بقي لله !! هل يعني ذلك أن نأذن بارتكاب شيء يخالف العقل والشرع بحجة أن العواقب غيب ؟ كلا فمن خالف الشرع والعقل حوسب وأوخذ، ولا تسمع له حجة. وقصة موسى مع الخضر مسلك خاص، تم بوحى أعلى، فكلا الرجلين يؤدي رسالة من ربه كلف بها. وقد انتهى زمان الوحي والرسالات فمن

اقتترف عملاً منكوراً وزعم أنه مكلف به من الله فهو كاذب، ووجبت عقوبته بمقدار ما اقتترف وادعى!. وما حدث لموسى خاصة كان معاتبة من الله له، لأنه في غمرة تبليغ الدعوة سئل هل يوجد من هو أعلم منه؟ فنفى، وكان ينبغي أن يرد العلم كله لله فشاء الله أن يؤدبه بهذه القصة الغريبة ليشعر بأنه فوق كل ذي علم عليم!" (١).

١١- "وقد يقال: إن خضر أفضل عند الله من موسى؟. ونجيب: أن كلا، فموسى واحد من المرسلين الخمسة أولي العزم الذين أخذ الله عليهم الميثاق بهداية البشر، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، ولا يفضل هؤلاء أحد من الناس. والمزية التي ظهرت للخضر هنا لا تقدمه على موسى، فإن المزية لا تقتضي الأفضلية، ومكانة الرجل تجيء من مواهب كثيرة تلتقي في شخصه، لا من موهبة واحدة يكون فيها مبرزاً، على حين يكون عادياً في بقية صفاته" (٢).

١٢- في قصة موسى والخضر حث كثير على المجاهرة بالمبادرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمصابرة عليه، وأن لا يراعى فيه كبير ولا صغير إذا كان المرء على ثقة من أمره في الظاهر بما عنده في ذلك من العلم عن الله ورسوله وأئمة دينه." (٣).

١٣- اشتملت هذه القصة على فنون من آداب الصحبة والحوار وآداب التعلم والتعليم. مثل استحباب الرحلة في طلب العلم، واستزادة العالم من العلم،

(١) انظر نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم. للشيخ محمد الغزالي ص ٢٣٥.

(٢) السابق ص ٢٣٧.

(٣) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢/ ١٢٥).

واتخاذ الزاد للسفر، وأنه لا ينافي التوكل، ونسبة النسيان ونحوه من الأمور المكروهة إلى الشيطان مجازاً وتأديباً عن نسبتها إلى الله تعالى، وتواضع المتعلم لمن يتعلم منه ولو كان دونه في المرتبة واعتذار العالم إلى من يريد الأخذ عنه في عدم تعليمه ما لا يحتمله طبعه، وتقديم المشيئة في الأمر، واشتراط المتبوع على التابع، وأنه يلزم الوفاء بالشرط، وأن النسيان غير مأخوذ به، وأن الثلاث اعتباراً في التكرار ونحوه، وأنه لا بأس بطلب الغريب الطعام والضيافة، وأن صنع الجميل لا يترك ولو مع اللئام، وجواز أخذ الأجر على الأعمال، وأن المسكين لا يخرج عن المسكنة بكونه له سفينة أو آلة تكسب أو شيء لا يكفيه، وأن الغصب حرام وأنه يجوز إتلاف مال الغير وتعييبه لوقاية باقية كمال المودع واليتيم، وإذا تعارضت مفسدتان ارتكب الأخف وأن الولد يحفظ بصلاح أبيه، وأنه يجب عمارة دوره وتحريم إهمالها إلى أن تخرب (١). وقد تم بيان ذلك وغيره تفصيلاً.

والحمد لله على فضله وتوفيقه.

(١) انظر الإكليل في استنباط التنزيل للإمام السيوطي (ص: ١٧١).

مراجع البحث (١)

- ١- أحكام القرآن - القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ) - راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- ٢- إحياء علوم الدين = أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ) = دار المعرفة - بيروت.
- ٣- أسرار التعليم والتعلم سليمان محمد موسلمان ط دار وحي القلم. الأولى ١٤٤٠-٢٠١٨.
- ٤- أصول البحث العلمي ومناهجه للدكتور أحمد بدر - وكالة المطبوعات الكويتية ط ٧ - ١٩٨٤ م. توزيع دار القلم بيروت.
- ٥- أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع لعبد الرحمن النحلاوي. دار الفكر. ط الخامسة والعشرون ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- ٦- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان. ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- ٧- إعراب القرآن - أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: ٣٣٨هـ) - وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم - الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ

(١) مرتبة أجدياً.

- ٨- إعراب القرآن وبيانه- محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى: ١٤٠٣هـ) - دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت) - الرابعة، ١٤١٥ هـ.
- ٩- الإكليل في استنباط التنزيل للإمام عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب دار النشر: دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- ١٠- أنوار التنزيل وأسرار التأويل = ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) = محمد عبد الرحمن المرعشلي = دار إحياء التراث العربي - بيروت = الأولى - ١٤١٨ هـ.
- ١١- البحث العلمي مناهجه وتقنياته: د/ محمد زيان عمر، ط/ جدة بالسعودية، ١٣٩٤ هـ.
- ١٢- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة= عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ)= مكتبة الآداب= السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م
- ١٣- البلاغة العربية - عبد الرحمن بن حسن حَبَّكَّة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ) دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت. الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.
- ١٤- تاج العروس تاج العروس من جواهر القاموس - محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ) - مجموعة من المحققين - دار الهداية

- ١٥- تاريخ دمشق - أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ) - المحقق: عمرو بن غرامة العمروي - الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- ١٦- تأملات في سورة الكهف للشخ أبي الحسن الندوي. ط دار القلم بالكويت.
- ١٧- التحرير والتتوير «تحرير المعنى السديد وتتوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد = محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ).
- ١٨- التعريفات - علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ) - ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان - الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ١٩- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم = أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ) = دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٢٠- تفسير الجلالين = جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفى: ٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) = دار الحديث - القاهرة = الأولى.
- ٢١- تفسير القرآن العظيم - أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) - المحقق: سامي بن محمد سلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م
- ٢٢- تفسير القرآن بالقراءات القرآنية العشر آمال خميس حماد ومجموعة باحثين ط روابي القدس بدون تاريخ.

- ٢٣- التفسير القرآني للقرآن - عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ) - دار الفكر العربي - القاهرة.
- ٢٤- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج = د وهبة بن مصطفى الزحيلي = دار الفكر المعاصر - دمشق = الثانية، ١٤١٨ هـ.
- ٢٥- التفسير والمفسرون في ثوبه الجديد. أد عبد الغفور مصطفى ط دار السلام ط الأولى. ١٤٢٨هـ - ٢٠٧م.
- ٢٦- جامع البيان في تأويل القرآن = محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) = أحمد محمد شاكر = مؤسسة الرسالة = الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- ٢٧- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- ٢٨- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) - تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش - الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة - الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.
- ٢٩- حاشية القونوي على تفسير البضاوي ومعه حاشية ابن التمجيد ط دار الكتب العلمية. بيروت. الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م "

- ٣٠- حجاج موسى عليه السلام في النص القرآني - دراسة تداولية - كهينة زמוש ص ٥٧ رسالة ماجستير جامعة مولود معمري تيزي وزو كلية الآداب واللغات - الجزائر. طبع المؤلف بدون تاريخ.
- ٣١- حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن - الشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي - إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي - دار طوق النجاة، بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- ٣٢- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني: أد محمد محمد أبو موسى - مكتبة وهبة - السابعة.
- ٣٣- دَرْجُ الدُّرِّرِ فِي تَفْسِيرِ الآيِ وَالسُّورِ = أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١ هـ) = دراسة وتحقيق: (الفاطحة والبقرة) وليد بن أحمد بن صالح الحُسَيْن، (وشاركه في بقية الأجزاء): إياد عبد اللطيف القيسي = مجلة الحكمة، بريطانيا = الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م
- ٣٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني = شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠ هـ) = ت: علي عبد الباري عطية = دار الكتب العلمية - بيروت = الأولى، ١٤١٥ هـ.
- ٣٥- زاد المسير في علم التفسير = جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧ هـ) = ت: عبد الرزاق المهدي = دار الكتاب العربي - بيروت = الأولى - ١٤٢٢ هـ.
- ٣٦- زهرة التفاسير = محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤ هـ) = دار الفكر العربي.

٣٧- سر صناعة الإعراب - أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ) ط. دار الكتب العلمية بيروت-لبنان الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٣٨- سير أعلام النبلاء = شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ) = مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط = مؤسسة الرسالة = الثالثة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

٣٩- شرح ديوان المتنبي = أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (المتوفى: ٦١٦هـ) = ت: مصطفى السقا/إبراهيم الأبياري/عبد الحفيظ شلبي = دار المعرفة - بيروت.

٤٠- صحيح القصص النبوي. د. عمر سليمان الأشقر ط المؤلف.

٤١- طبقات النحويين واللغويين (سلسلة ذخائر العرب ٥٠) - محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، أبو بكر (المتوفى: ٣٧٩هـ) - محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة: الثانية - دار المعارف.

٤٢- علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع» = أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ). بدون.

٤٣- فتح الباري شرح صحيح البخاري - أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي - دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ - رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي - قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب - عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

٤٤- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) - شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (المتوفى: ٧٤٣ هـ) - مقدمة

التحقيق: إياد محمد الغوج - القسم الدراسي: د. جميل بني عطا - المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: د. محمد عبد الرحيم سلطان العلماء - الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم - الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.

٤٥ - الفروق اللغوية - أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥ هـ). حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم - دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة - مصر.

٤٦ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل - أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨ هـ) - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.

٤٧ - اللامات: عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، أبو القاسم (المتوفى: ٣٣٧ هـ) المحقق: مازن المبارك الناشر: دار الفكر - دمشق الطبعة: الثانية، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

٤٨ - اللامع العزيزي شرح ديوان المتنبي - أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) - المحقق: محمد سعيد المولوي - الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٤٩ - مجاز القرآن = أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (المتوفى: ٢٠٩ هـ) = ت محمد فواد سزگين = مكتبة الخانجي - القاهرة = ١٣٨١ هـ.

٥٠ - محاسن التأويل = محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢ هـ) = ت: محمد باسل عيون السود = دار الكتب العلمية - بيروت = الأولى - ١٤١٨ هـ.

- ٥١- مذكرة في أصول الفقه. محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) - الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة - الطبعة: الخامسة، ٢٠٠١ م.
- ٥٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل = أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) = شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون.
- ٥٣- المعالم الأثرية في السنة والسيره المؤلف: محمد بن محمد حسن شُرَّاب الناشر: دار الفلم، الدار الشامية - دمشق - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١١هـ.
- ٥٤- معاني القراءات للأزهري = محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ) = مركز البحوث في كلية الآداب - جامعة الملك سعود = المملكة العربية السعودية = الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.
- ٥٥- معاني القرآن = أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (المتوفى: ٣٣٨هـ) = ت: محمد علي الصابوني = جامعة أم القرى - مكة المكرمة = الأولى، ١٤٠٩.
- ٥٦- معاني النحو. د. فاضل صالح السامرائي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الأردن الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م بتصرف واختصار.
- ٥٧- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) - عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) - دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

- ٥٨- معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب = شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ) ت: إحسان عباس = دار الغرب الإسلامي، بيروت = الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.
- ٥٩- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم للأستاذ الدكتور محمد حسن حسن جبل مكتبة الآداب - القاهرة - ط. الثانية ٢٠١٢ م
- ٦٠- معجم الفروق اللغوية = أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) = الشيخ بيت الله بيئات، ومؤسسة النشر الإسلامي = مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم» = الأولى، ١٤١٢هـ.
- ٦١- مغني اللبيب عن كتب الأعراب = عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ) = د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله = دار الفكر - دمشق = السادسة، ١٩٨٥.
- ٦٢- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير = أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) = دار إحياء التراث العربي - بيروت = الثالثة - ١٤٢٠ هـ.
- ٦٣- مفتاح العلوم = يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: ٦٢٦هـ) = ضبطه وكتبه هوامشه وعلق عليه: نعيم زررور = دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان = الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ٦٤- المفردات في غريب القرآن = أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ) = صفوان عدنان الداودي = دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت = الأولى - ١٤١٢ هـ.

- ٦٥- من بلاغة القرآن = أحمد أحمد عبد الله البيلي البديوي (المتوفى: ١٣٨٤هـ) = نهضة مصر - القاهرة - ٢٠٠٥م. (المتوفى: ١٣٨٤هـ) نهضة مصر - القاهرة - ٢٠٠٥م.
- ٦٦- منابع مشكلات الأمة الإسلامية والعالم المعاصر ودور التربية الإسلامية وقيمها في معالجتها. تأليف د. مقداد يالجن. الرياض، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.
- ٦٧- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- ٦٨- موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين - المؤلف: الإمام محمد الخضر حسين (المتوفى: ١٣٧٧ هـ) - جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني - الناشر: دار النوادر، سوريا - الطبعة: الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.
- ٦٩- الموسوعة القرآنية المتخصصة = مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين = المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر = ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- ٧٠- النحو الوافي - عباس حسن (المتوفى: ١٣٩٨هـ) - دار المعارف - الطبعة الخامسة عشرة نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم. للشيخ محمد الغزالي ط دار الشروق.

- ٧١- النشر في القراءات العشر = شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣ هـ) = علي محمد الضباع (المتوفى ١٣٨٠ هـ) = المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتاب العلمية].
- ٧٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور = إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥ هـ) = دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- ٧٣- النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام - المؤلف: أحمد محمد بن علي بن محمد الكرجي القصاب (المتوفى: نحو ٣٦٠ هـ) - تحقيق: الجزء ١: علي بن غازي التويجري الجزء ٢ - ٣: إبراهيم بن منصور الجنيدل - الجزء ٤: شايح بن عبده بن شايح الأسمرى - دار النشر: دار القيم - دار ابن عفان - الطبعة: الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- ٧٤- الوساطة بين المتنبي وخصومه = أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢ هـ) = محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي = مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- ٧٥- معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر» لعادل نويهض. قدم له: مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت - لبنان - الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.